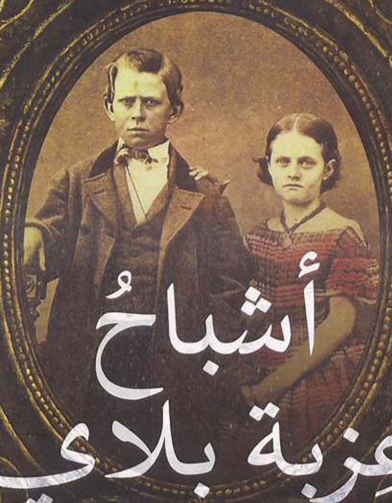

أشباحُ عِزبة بلاي

دورةُ البرغي

THE TURN OF THE SCREW

الرواية الأصلية لمسلسل (THE HAUNTING OF BLY MANOR)

هنري جيمس ترجمة: شيرين هنائي

t.me/qurssan

أشباحُ عِزبة بلاي

ترجمات

(دورةُ البرغي)

تأليف: هِنري جيمس

ترجمة: شيرين هنائي

تصميم الغلاف: محمد مجاهد

تدقيق لغوي :هاني إبراهيم

رقم الإيداع: 15019 /2020

I.S.B.N:978- 977-6640-90-0

الطبعة الأولى2020م

للنشر والتوزيع

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

المدير التنفيذي :شادي ابو شهبة

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة©

t.me/qurssan

شيرين هنائي

أشباحُ عِزبة بلاي

(دورة البرغي)

ترجمات

هِنري جيمس

زين للنشر والتوزيع

t.me/qurssan

t.me/qurssan

The turn of the screw
(The haunting of Bly manor)

A novel by:

Henry James

t.me/qurssan

t.me/qurssan

جوار المدفأة جلسنا. ملتفين حول القصة التي سحبتنا إلى عوالمها مبهوري الأنفاس. لا نقدر إلا على تعليقات متعجبة من وقع القصة العجيبة على نفوسنا.

كانت عشية عيد الميلاد المجيد. وكان محتوما علينا -طالما اجتمعنا في منزل عتيق- أن نسمع قصة. لكن ما سمعناه ليلتها لم تكن أي قصة. حتى أن البعض ممن استمعوا لها أعلنوا أنهم لم يسمعوا من قبل عن زيارة كتلك التي تلقاها الطفل في حكايتنا.. زيارة من شبح في منزل عتيق كذلك الذي نجتمع فيه الليلة.

كان الشبح مُرعبا. وكان الطفل يافعا ينام في حجرته مع أمه. فيوقظها فزعا من مرأى الشبح. لم يكن يوقظها لتُطمئنه وتزيل خوفه. بل لتشهد معه حدثا عجيبا مثيرا للذعر.

أثار دوجلاس انتباهنا بملاحظةٍ ألقاها بشأن القصة في نهاية الأمسية. وكان شاردا طيلة الوقت لا يصغ إلى الحكايات التي تُروى من حوله مما دفعني إلى استنتاج أن في جعبته قصة يريد أن يشاركنا إياها.

انتظرنا أن يحكي لنا. وطال انتظارنا ليلتين تاليتين. إلا أننا لم نفترق بعد أمسيتنا الأولى قبل أن يكشف لنا ما يعتمل في نفسه ويدور في خلده.

قال دوجلاس:

t.me/qurssan

"أما بشأن شبح جريف الذي سمعنا حكايته الليلة، فأوافق تماما على أن القصة مختلفة وجديدة، كون شبح كهذا يظهر لطفل بلا حول ولا قوة. إلا أن تلك القصة لم تكن الأولى التي أسمعها بهذه الغرابة، بل وتتعلق أحداثها العجيبة بطفل. فطفل واحد قادر على أن يزيد طين الرعب بِلَّة بتصرف عفوي منه. فما بالكم بطفلين؟"

تعجب أحد الحضور قائلا:

"لا شك أن طفلين قادران على زيادة الطين بَلَّتين! ستكون قصة مُضاعفة الرعب!"

كنت أرى دوجلاس يولي ظهره للمدفأة، واضعا كفيه في جيبيه. بعد هنيهة أضاف:

"لم يعرف مخلوق بتلك الحكاية سواي، وهي حكاية يشيب لهولها الولدان."

تعالت غمغمات الحضور مضفية أهمية على كلماته، وكان رفيقنا يجيل عينيه في انتصار بين وجوهنا المشتاقة للحكاية، ماضيا في حديثه قائلا:

"لا تحاولوا استنتاج أحداث هذه القصة، فلم توجد قصة قط تضاهيها."

أذكر أنني سألته:

"أهي فقط قصة من قصص الرعب المعتادة؟"

مرر كفه على عينه وهو يعاني قصورا في كلماته، فلا يقدر على إيجاد وصف مناسب لقصته. قال في النهاية ببساطة:

"وأي رعب!"

صاحت إحدى الحاضرات:

t.me/qurssan

"للرعب متعة!"

لم يلتفت لقول السيدة. وظل يرمقني كأنما رأى في مُحياي الشبح الذي يتكلم عنه. قال شاردا:

"رعب؟ لم تكن قصة عن الرعب، بل عن القبح والفزع والألم."

قلتُ محاولا تهدئته:

"لا عليك.. اجلس واحك لنا.."

لتفت دوجلاس إلى نيران المدفأة خلفه. وركل قطع الأخشاب فيها فاستعَرَت. أطال النظر إليها ثم واجهنا قائلا:

"لا أستطيع الحكي في التو.. علي أن أرسل خطابا للمدينة."

غمغم الجالسين في اعتراض وتأنيب. فاضطر أن يشرح لنا سر تأجيله للحكاية وقال:

"القصة مُدوّنة ومحفوظة في درج مقفل لم تغادره منذ سنين. سأكتب إلى تابعي مرسلا في خطابي إليه مفتاح الدرج ليرسل لي الدفتر."

بدا لي صادقا، إلا أن الاخرون قد عارضوا التأجيل. كانت اللمحات التي حكاها دوجلاس قد أشعلت فضولي فرجوته أن يرسل خطابه في أقرب وقت ويرحمنا من شوقنا إلى التفاصيل. سألته إن كانت قصته من وحي خياله أم أنها قصة حقيقية. فأجاب حازما:

"هي قصة حقيقية تماما."

"وهل أنت من دونتها في الدفتر؟"

"لم أكتب إلا ما اعتمل في داخلي من أثرها.."

وأشار إلى موضع قلبه مردفا:

t.me/qurssan

"هي محفوظة هنا ولم أفقد منها شيئا."

"وما حالة المخطوط؟"

"لقد بهت حبره من أثر الزمن، وقد كان مكتوبا بأروع خط يمكن مطالعته."

حرك الأخشاب في النيران مجددا وتابع:

"الحكاية مكتوبة بخط يد امرأة، امرأة ماتت منذ عشرين عاما، وقد أرسلت لي ذلك الدفتر قبل موتها."

كنا جميعا مُنصتين، مِنا من انحنى ملهوفا، ومنا من راح يحاول استنتاج القصة ويخبرنا باستنتاجات تطفئ حماسنا. تابع دوجلاس حديثه غير مكترث بكل هذا:

"كانت شخصية فاتنة، وكانت تكبرني بعشر سنوات. هي مربية أختي.. إنسانة مذهلة جديرة بأي منصب تشغله. كانت القصة من زمن بعيد وكنت أدرس بعد في مدرسة الثالوث المقدس، وقابلتها للمرة الأولى في عطلة الصيف حين عدت لبيتي. كان عاما طيبا أمضيته في جنة من حلو حديثها ولباقة لفظها ونزهاتنا في الحديقة ساعة راحتها. لا تغمغموا فقد همتُ بها حبا. وقلبي مطمئن إلى يومنا هذا بكونها بادلتني الحب. لو لم تحبني ما كانت لترسل لي تلك القصة. فهي لم تخبر أحدا غيري بها. وما كان إخبارها لي بالأمر الهين على نفسها.. واثق أنا من ذلك. حين تسمعون قصتي ستفهمون ما أقول، وستتفهمون الهول الذي أتحدث عنه."

كرر دوجلاس عبارته "ستفهمون ما أقول" كأنما يفسر لنا بها ما استغلق على عقولنا فهمه. قلت له:

"نحن نفهم بالطبع كونها أحبتك."

t.me/qurssan

للمرة الأولى ضحك وقال:

"صحيح، أحبتني وأبقت على حبها حينا، وقد عرفت مدى حبها لي عندما قرأت ما كتبت. فلن تستطيع أن تبوح بتفاصيل الحكاية دون أن تكشف حبها. كشفتُ أنا حبها وأدركت هي أنني كشفته. فكتمتُ كشفي ولم تبح هي بإدراكها. لم أعد أذكر متى حكت لي قصتها ولا أين.. ربما كنا تحت ظلال الأيكة في ظهر يوم صيفي حار. ولم يكن من حولنا ما يثير المخاوف.. ولكن..."

أطفأ دوجلاس النيران وتداعى على كرسيه. سألته:

"متى ستتسلم الدفتر؟ الخميس صباحا؟"

"قد لا يصل الدفتر إلا في موعد وصول البريد التالي."

سألتُ الحضور:

"اتفقنا، أنلتقي جميعا هنا بعد غداء يوم الخميس؟"

سألنا هو في أمل ورجاء:

"هل سيرحل منكم أحد؟"

"سنبقى جميعا!"

تصايحت النسوة اللواتي كن قد انتوين الرحيل مسبقا:

"نحن باقيات!"

طلبت السيدة جريفين أن نُزيد الإضاءة، ثم أردفت:

"وأين قصة الحب؟ لا تقل أنها كانت تحبك كما تحب المرأة رجلها.. لابد من قصة حب لامرأةٍ فاتنة مثلما تحكي عنها "

أجبتُ أنا:

t.me/qurssan

"ستعرفين كل شيء حين تسمعي القصة."

"ولكنني لا أطيق الانتظار!"

قال دوجلاس:

"لن تذكر القصة أية قصص عشق، هذا أسلوب رخيص في القصص."

"يا للخسارة! هذه هي الطريقة الوحيدة التي أفهم من خلالها الحكايات!"

وقبل أن يسأل أحدهم مجددا، قام دوجلاس واقفا وهتف:

"عموما سأحكي كل شيء غدا، أما الآن فأشعر بالنعاس. طاب مساؤكم!"

تناول الشمعدان وتركنا في الظلمات حيارى. كنا نسمع صدى خطواته المبتعدة قادمة من نهاية الردهة ثم راحت الخطوات ترتقي درجات السلم. حينها فقط قالت السيدة جريفين:

"الآن لم يصرح باسم العشيق، فأنا أعرفه!"

قال زوجها:

"كانت تكبره بعشر سنوات."

"دوجلاس هو العشيق! أتعجب لحب بينهما في هذه السن، لكن وما يمنع؟ جميل منه أن يبوح لنا بحب كهذا."

قال السيد جريفين:

"أربعون عاما مرت على تلك الحكاية...."

".. لكنه باح أخيرا.."

t.me/qurssan

قلت لهما متعقلا:

"مهلا.. سنعرف كل شيء يوم الخميس."

صدّق الجميع على كلامي وقد انشغلت أذهانهم بالقصة ولا شيء سواها. تصافحنا وتبادلنا تحيات المساء، وهجع كلّ إلى فراشه.

***

في اليوم التالي علمتُ أن دوجلاس قد أرسل مفتاح الدرج إلى منزله في لندن. وظلت القصة على غموضها رغم كل شيء.

تركنا دوجلاسَ وشأنه إلى ما بعد الغداء، وحين أسدل المساء حُجُبَه، اجتمعنا مجددا آملين في أن يقدم لنا ما يروي فضولنا حتى يصل الدفتر. راح يعتذر لنا عن غيابه وانفراده بنفسه، ثم اتضح لنا من كلامه أن القصة التي سيرويها تحتاج إلى بعض المقدمات.

الآن أصرح لكم أنني حصلت على الدفتر من دوجلاس، والذي أعطاني إياه فور تسلمه له في اليوم الثالث من أمسية عيد الميلاد المجيد.

في اليوم الرابع، تلا دوجلاس على اجتماعنا الصغير المنصت صفحات حكايته، وقد رحل أغلب الزوار حتى اللاتي قلن أنهن باقيات بسبب ترتيبات الرحيل المسبقة. رحلن حاملات في نفوسهن شعلات من الفضول أشعلها دوجلاس بتلميحاته عن قصته.

وكان رحيل أغلب النسوة قد أفسح مجالا لاجتماع صفوتنا حول دوجلاس والمدفأة من خلفه.

كانت صديقته التي دونت القصة، هي الابنة الصغرى لقس ريفي، وقد سافرت إلى لندن وهي ابنة عشرين عاما لتلتحق بوظيفة قرأت

t.me/qurssan

... في إعلان جريدة. وكانت تلك هي المرة الأولى التي تعمل فيها مما اضطرها ... على نفسها من ملاقاة المُعلن.

كان المُعلن، والقاطن في منزل ضخم مهيب في شارع هارلي، رجل عبوس، أعزب، لم تر في وسامته وبهائه إلا في الخيال القصصي.

وقفت أمامه راجفة، ريفية، جميلة، بلا خبرة. وجلس أمامها جسورا وسيما كريما مرحا. وقد أعطاها انطباعا بأنه قد تفضل عليها وقبل أن تعمل لديه بلا خبرة، وكانت شاكرة له ومَدينة.

كان يحيا في بذخ ويرتدي أغلى الملابس وأفخرها، وكان ساحرا في معاملة النساء. المنزل الذي قابلته فيه في المدينة مخصصا لمُعدات الصيد والسفر، وكانت وظيفتها في عزبته بمقاطعة إسكس.

كان أخوه رجلا عسكريا وقد توفي في الهند منذ عامين، تاركا ابنه وابنته في رعايته، وهو الرجل نافد الصبر، البعيد عن خبرات التربية ومراعاة الصغار. صار الطفلان عبئا على كاهله وسببا للمشقة والمشاكل، إلا أنه كان يحنو عليهما ويبذل كل ما يستطيع في سبيل الحفاظ على سلامتهما.

أرسلهما للحياة في عزبته، وأحاطهما بالخدم والمربين في الوقت الذي لم يستطع فيه أن يقوم على رعايتهما بنفسه. فقد كان ملاذهما الوحيد وما تبقى لهما من عائلة في الحياة. لكن أعماله في المدينة كانت تشغل جُل وقته، لذا اضطر إلى توظيف مربيات لهما.

في عزبة بلاي، عهد إلى السيدة جروز بخدمتهما، وهي سيدة مُسنة كانت خادمة لأمه. هي الآن مديرة المنزل ولم تكن تقدر على الإشراف عليهما إلا في وقت تواجدهما في الطابق الأرضي، كانت تغدق على الطفلين بأمومتها الفياضة، ويعاونها في رعايتهما الخدم. إلا أنهما كانا

t.me/qurssan

في حاجة إلى مربية متفرغة خاصة وقد قربت إجازة المدرسة على البدء. وسيعود الطفل من المدرسة الداخلية في إجازته الصيفية.

كانت ثمة مربية للطفلين منذ فترة، وكانت تكرم مثواهما حتى توفيت. وقد تركت برحيلها فراغا لا يملؤه سوى المدرسة بالنسبة للطفل ميلز.. لكن ماذا عن الطفلة الوحيدة فلورا؟

بذلت السيدة جروز كل ما تستطيع من محبة وعطف تجاه فلورا. وكان للطفلة حصان قزم وسانس وبستاني يرعى حديقتها ويملؤها حبورا. كان الكل متعاونا محبا جديرا بالاحترام.

سأل أحد الرفاق دوجلاس:

"وكيف ماتت المربية الأولى؟"

أجاب جوابا مقتضبا:

"ستعرف من القصة. لا داعي لاستباق الأحداث."

"توقعت جوابك هذا!"

قلتُ أنا:

"السؤال المهم هو عن المربية الثانية وما لاقته خلال عملها."

رد دوجلاس:

"لاقت من عملها الخطر الداهم. كانت تريد أن تختبر الحياة وها قد اختبرتها. غدا ستستمعون إلى ما عانته وخبرته. كانت صغيرة السن وبلا خبرة، ولم تكن تعلم أي مستقبل أسود أمامها. كانت جادة وجديتها تسببت في وحدتها. ترددت كثيرا في قبول الوظيفة. لكن الراتب الذي عُرض عليها أمال رأسها. ورجحت بساطة طموحها كفة القبول لديها. بالإضافة إلى أن الموسيقى الخلابة التي كانت تحيط بسيدها الوسيم سحرتها تماما."

t.me/qurssan

توقف دوجلاس عن الحكي. فحثثته على إكمال حكايته. وقف متجها إلى المدفأة كما فعل في الليلة السابقة وقال:

"أما المغزى الأخلاقي من القصة فيكمن في سحر السيد الشاب الذي أمال قلب المربية الصغيرة."

حرك الأخشاب في المدفئة كما فعل في ليلتنا الأولى وأدرف:

"فهي قد انجرفت مع مشاعرها وبراءتها. لم تره إلا مرتين. وهذا أجمل ما شغفها به. وذلك الهوى قد جعلها تقبل بالوظيفة التي ما كانت مثيلاتها ليقبلن بها. فهي وظيفة مخيفة رفضتها من تقدمن لها. ويا لغبائهن. لقد أصابهن الذعر من شرط السيد..

"وما هو هذا الشرط؟"

"ألا تزعجه أبدا بالشكوى عن أي شيء من أمور وظيفتها. وعليها أن تتعامل مع ما يستجد من مشكلات. على أن تتسلم من المحامي راتبها وما تحتاج إليه من مال. عليها أن تترك سيدها يتفرغ لأعماله. وعدت بتنفيذ شرطه. ولمفاجأتها رأت السعادة ترتسم على قسماته. وقام إليها مصافحا. فكان لما فعله عظيم الأثر في نفسها وكأنها نالت كل مكافآت الدنيا."

سألت سيدة من الباقيات معنا:

"أكان هو. أو فعلته تلك. مكافأتها الوحيدة؟!"

"هي لم تره مجددا بعدها."

وكان هذا آخر ما قاله في تلك الأمسية قبل أن يتركنا. حتى إذا جاءت الليلة التالية. جلس دوجلاس في مقعده مجاورا المدفأة. وفتح دفترا ذا غلاف باهت مَذهب الأطراف. واستغرق تلاوة ما في الدفتر علينا ليال عديدة تالية.

t.me/qurssan

سألت ذات السيدة التي أنهت بسؤالها أمس جلستنا:

"ما عنوان قصتك؟"

"بلا عنوان."

قلتُ أنا:

"لدى مقترح لعنوان!"

لم يعرني دوجلاس انتباها، وشرع يقرأ بصوته الرخيم ويفض غموض قصته على مسامعنا..

t.me/qurssan

-1-

لازلتُ أذكر تفاصيل البدايات. تتقاطر إلى ذهني كحبات المطر. ويصطرع في قلبي الصواب والخطأ.

ما أن بلغت المدينة حتى مررتُ بيومين غاية في السوء. وقد انتابتني نوبات تشكك في صواب ما اتخذته من قرار بمجيئي.

وقد أمضيت ساعات سود في التأرجح داخل العربة التي ستقلني من المدينة إلى العزبة. كانت رحلة مريحة كما أمر السيد أن تكون، وقد قطعنا الطريق الخلاب في أصيل يوم صيفي مبهج.

لكن الشك قد أنقض على هنائي، وراودني عن إصراري على استكمال مهامي. لكن ما أن اقتربنا من العزبة حتى غاص الشك بعيدا في أغوار نفسي، هاربا من عذوبة ما رأيته أمامي.

أمام ناظري تجلت الواجهة العريضة للمنزل الريفي. وقد تفتحت نوافذه كاشفة عن ستائر بهيجة الألوان. من خلفها تبدت لي خادمتين. وكان لمرآهما أثر طيب دافئ في نفسي.

ما زلت أذكر اخضرار الحشائش التي تلتمع وسطها الأزهار المكللة بالندى. وصوت عجلات العربة التي تُقلني. وتمايل الأغصان من فوقي تحت سماء ذهبية تحوم بين جنباتها الطيور.

مشهد رائع، مقارنة بمظهر منزلي المتواضع في القرية.

t.me/qurssan

عند باب المنزل، قابلتني سيدة لطيفة ممسكة في كفها كف طفلة صغيرة. كان استقبالها مُرحبا ودودا كما لو كنت سيدة ذات منزلة عليّة.

كان ما رأيته أكثر بكثير مما توقعته، فقد كنت أظنني ملاقية منزلا ريفيا بسيطا لسيد شاب.

حتى اليوم التالي لم أر جديدا، وقد قضيت ساعاتي الأولى في المنزل أتعرف إلى تلميذتي الصغيرة الساحرة، التي مسّت جذور روحي فور التقاء عينانا، وقد اعتبرت نفسي مجدودة الحظ كي أحظى برفقتها، فهي أجمل ما رأت عيناي من أطفال وعجبت من قلة حديث السيد عنها.

في الليل منعني اضطرابي وقلقي من النوم، وأدهشني هذا الشعور رغم الترحيب الذي قوبلت به والمعاملة الحسنة التي أغدقها علي الجميع، حتى أنهم جعلوا مبيتي في واحدة من أبهى حجرات المنزل.

كان للفراش الأنيق الفخم وقع مبهج على نفسي، وكذا الأبسطة المزدانة بالنقوش، والمرايا الهائلة التي مكنتني لأول مرة من أن أرى صورتي من أعلى رأسي حتى أخمص قدماي.

دهشتي لم تقف عند هذا الحد، وقد أذهلتني أمورا أكثر أثناء عملي.

رأيتُ أن أوطد علاقتي بالسيدة جروز منذ البداية، وكانت تلك هي نيتي منذ ركوبي العربة متجهة إلى العزبة أمس.

كانت السيدة جروز جياشة المشاعر، حتى أن فيضان محبتها لي وحبورها بملاقاتي كاد يفزعني ويدفعني لوضع حاجز بيننا. على مدار نصف ساعة ظلت تعبر في طفولة وبراءة عن سعادتها بقدومي!

t.me/qurssan

السيدة جروز كانت بدينة ذات سريرة بيضاء، ونفس سَمِحة. أنيقة، تتمتع بصحة موفورة، وكانت تبذل جهدا كي تخفي كل تلك الصفات المحمودة. وقد تعجبت لذلك. فلم عساها تخفي حقيقتها الطيبة؟ عجبي أضاف إلى قلقي قدرا يسيرا من الشك.

مع مرور اللحظات في حضرتها، تلاشى القلق وعم السرور بحضور الطفلة ذات الجمال الملائكي.

كنت أصحو قبيل الشروق وأفكر في ذلك الملاك الصغير، وما جاء بي إلى تلك الحجرة الفاخرة، وأتساءل عن حياتي المقبلة في هذا المكان الرحب.

أقوم إلى نافذتي وأرقُبُ شروق يوم صيفي أخر، مستطلعة من مكاني ما تستطيع عيناي الوصول إليه من جنبات العزبة وأُنصتُ إلى زقزقات الطيور. بعد برهة اتحدت أصوات الطيور سويا في عقلي وخُيِّل إليَّ أنني سمعت صرخة طفل على مَبعُدة. من خلفي سمعت صوت خطوات سيرٍ في الطرقة أمام حجرتي.

لم يكن ما سمعته حقيقيا واطمأننت لكونه هلوسة من عقل قلِق، وظلت تلك الوساوس تطاردني كلما خلوت إلى ظلام أو خرجت إلى نور.

انشغلت في مهام يومي، وهي تتلخص في اتفاقي مع السيدة جروز على رعاية فلورا صباحا ومساءً، وكان سرير الطفلة الأبيض يقبع في ركن من الغرفة المخصصة لي.

رغم خجلها الفطري وشعوري بالغربة، إلا أنني قد وقعت أسيرة رقتها وجمالها الذي يرتقي لرسوم رفاييل لطفولة السيد المسيح. كانت خَجِلة ولم يمنعها ذلك من جرأة في النقاش وتمسُّكٍ بالرأي.

كان إعجابي بالطفلة يضفي على السيدة جروز سرورا وراحة بالغين. كنا نجلس على طاولة العشاء، وتتخذ تلميذتي كرسيا عاليا

t.me/qurssan

مرتديةً مربولة صدر. وأمامنا شمعدانات أربع تنير لنا الطعام على المائدة.

لم نكن مرتاحتين - أنا والسيدة جروز- إلى الحديث بحرية تامة في وجود فلورا. وكنا نتخذ حديثا مليئا بالإشارات والإيماءات الغامضة كي لا تفهم الطفلة عن أي شيء نتحدث.

رغم ذلك وجدتني أسأل السيدة جروز:

"وهل الطفل في مثل جمالها؟"

لم يكن من الصواب أن أثير غرور طفل بالحديث عن محاسنه هكذا. لكنني تحدثت وسألت فأجابت السيدة جروز:

"بل أكثر جمالا إن كنت تعتبرين هذه الطفلة جميلة!"

وقفت السيدة جروز حاملة طبقا في يدها والطفلة تنقل عينين حالمتين بيننا.

قلتُ:

"بالفعل أراها جميلة."

قالت السيدة جروز:

"إذًا سيخلب السيد الصغير لُبَّكِ.. "

"حسنا.. أظنني ما جئت إلى هنا إلا لأكون مخلوبة اللُّب دوما! كانت لندن خلابة بالنسبة لي."

استعدت تسارع دقات قلبي وأنا أرى لندن لأول مرة. قالت السيدة جروز:

"خلبك شارع هارلي؟"

"أجل.. "

t.me/qurssan

"لست الأولى ولا الأخيرة يا آنستي."

ضحكتُ قائلة:

"تسرني تلك الحقيقة! فهمت أن تلميذي الآخر سيصل غدا."

"بل سيصل الجمعة، وستوصله العربة التي أحضرتك تحت رعاية الحارس."

اقترحت عليها أن أذهب وأخته لاستقباله، فهذا من شأنه إدخال روح الصداقة والمحبة عليه، وقد أُعجبت السيدة جروز بمقترحي وبالغت في إظهار فرحتها كوني موجودة وبجوارها.

***

في اليوم التالي تعكر مزاجي، ولم يكن لهذا سبب، وغالبني الضيق معظم الوقت، لكن سرعان ما تلاشى هذا الشعور حين عرفت الطفلين أكثر واستمتعت برفقتهما.

كان لاضطرابي في البداية أثر في تأخر بدء دروسي، واعتقدت أن واجبي الأول هو التعرف إلى الطفلة وبهذا أختر أقصر السبل إلى قلبها وعقلها.

تركتها تقودني عبر الحدائق وتُريني خبايا العزبة وتحيطني علما بالمخابئ والخفايا، وفي خلال نصف ساعة صرنا صديقتين.

في خلال جولتنا القصيرة تلك، أذهلتني جرأتها وثقتها التامة في نفسها وهي تقتحم الدهاليز المظلمة وتفتح لي الأبواب الموصدة وتسبقني إلى أعالي سلالم لولبية يثير منظرها الدوار، حتى أنني حين وصلت إلى قمة البرج كدت افقد وعيي.

في حديثها حرصت على إحاطتي علما بكل ما يخفى علي، ولم تهتم بالاستفسار مني عن أي شيء كأنها كليّة المعرفة.

t.me/qurssan

تقودني طفلة ملائكية ذهبية الشعر عبر طرقات الجنة. فهل أحلم بأن أرى أكثر من تلك البهجة في عزبة بلاي؟

أيكون هذا المكان قبسا من حلم؟ وكيف لمنزل كبير بارد أن يكون بهذه الروعة؟

كان البيت على طراز عتيق. وقد خلت معظم حجراته المغلقة من الأثاث. كان البيت كسفينة تمخر بنا غباب البحر. وكنت أشعر أنني قبطانها أتولى دفتها وحدي.

t.me/qurssan

-2-

ألِفتُ الحياة في البيت. وبعد يومين من إقامتي ركبتُ وفلورا العربة ذاهبتين لاستقبال السيد الصغير. وكان قد وقع بالأمس حادثا أخل باستقرار وجداني.

كانت قد وصلت حقيبة البريد في المساء وفيها خطاب لنا. كان الخطاب يحوي كلمات قليلة مكتوبة بيد السيد الكبير. وفي داخل المظروف مظروف ثان مغلق.

نظرت السيدة جروز إلى المظروفين وقالت:

"هذا الخطاب المغلق على الأغلب من ناظر مدرسة السيد الصغير. اقرئيه واتخذي بشأنه ما ترينه صوابا. لكن المهم ألا ترسلي شيئا للسيد الكبير. وليس لي شأن بالأمر عموما!"

فتحت المظروف مترددة، وخلدت إلى فراشي ومعي الخطاب. وليتني ما قرأته ليلا. فلم أجد سبيلا للنوم ولم أجد من يشاركني همي أو ينصحني. في الصباح لم أجد بدًا من الحديث مع السيدة جروز.

قلت لها:

"معنى هذا أن السيد الصغير قد ترك المدرسة؟!"

نظرت لي السيدة جروز محاولة أن تفهم ما أرمي إليه، وسألتني:

"ألم يترك كل الأطفال المدرسة ليعودوا إلى بيوتهم في الإجازة الصيفية؟"

t.me/qurssan

"لا، باقي الأطفال تركوها لقضاء الإجازة. أما ميلز فلا أظنه سيعود إلى مدرسته أبدا!"

سألت السيدة جروز عن السبب. فأجبتها:

"لقد تم طرده!"

رفعت عينيها إلى وجهي، فوجدتهما غارقتين بالدموع الحارة. قالت:

"وماذا أفعل؟!"

فكرت في أناولها الخطاب لتقرؤه بنفسها، فما أن مددت يدي إليها به حتى خبأت كفيها خلف ظهرها وهزت رأسها يمنة ويسرة في حزن:

"لا ينبغي علي أن أطلع على تلك الشئون يا آنستي."

شككت أنها جاهلة بالقراءة، وشعرت بالخجل من نفسي لأني أحرجتها. فكرتُ في أن أقرأ الخطاب عليها إلا إنني طويته ووضعته في جيبي. سألتها:

"أهو حقا طفل سيئ الخُلُق؟"

"أيدّعون هذا في الخطاب؟"

"لم يذكروا أية تفاصيل. مفدى الخطاب أنهم لن يقبلوه إن عاد للمدرسة.. وليس لهذا إلا معنى واحد.."

حاولت أن يكون كلامي واضحا قدر استطاعتي قبل أن أُردف:

"الحق أنهم يدّعون أن وجوده يسبب أذى للآخرين."

استدارت السيدة جروز مبتعدة قليلا عني وهتفت في تعجب وثورة:

"سيدي ميلز يؤذي الآخرين؟!"

t.me/qurssan

رغم انعدام معرفتي بالصبي. إلا أن الخوف تملكني مما قرأت عنه. وكان علي أن أكون محايدة كي ألقاه بوجه صبوح ومحبة لانقة. فقلت للسيدة جروز مُهدئة:

"ربما يقصدون أنه شقي وربما تتسبب شقاوته في جروح أو إصابات لرفاق دراسته الصغار."

"إنه لأمر مفزع أن أسمع كلماتهم عنه! هو مجرد طفل في العاشرة!"

"حسنا.. لديك حق بالطبع."

"قابليه يا أنستي. ثم فكري فيما قرأتيه عنه."

شعرت بنفاد صبري، كنت أتوق لرؤيته. وكان توقي بداية حب استطلاع مرضي عندي، ظل يتفاقم في الأيام التالية.

راحت السيدة جروز تؤكد في حيرة مشيرة خلفي:

"أيمكنكِ أن تصدقي زورا كهذا على هذه الطفلة الصغيرة؟ انظري إليها؟ باركها الله!"

التفتُ فوجدت فلورا عند الباب. وكنت قد تركتها في حجرة الدرس ومعها ورقات بيض. كانت واقفة تنظر إلي في براءة ومحبة جمّة، محبة تأسرني وتجعلني مكتفية بها عن كل شيء في الدنيا. ولم أحتج إلى وقت أكثر لاستيعاب مقارنة السيدة جروز الطفلة بأخيها.

عانقت الصغيرة وغمرتها بقبلاتي..

***

شعرت أن السيدة جروز صارت تتجنبني بقية اليوم، وحاولت أن أتقرب منها كثيرا. حتى أنني لحقتها صعودا على الدرجات وقطعت عليها صعودها. أمسكت بذراعها برفق وقلت:

t.me/qurssan

"أنا بالفعل اقتنعت بحديثك عن ميلز. وبكونه صبيا ممتازا لا غبار عليه."

طوحت رأسها للخلف محاولة أن تجد في نفسها قوة لقول التالي:

"لم يكن معنى كلامي أنني لم أر منه سوءًا قط."

ضايقني كلامها. فسألتها نافدة الصبر:

"هذا يعني أنه قد يمتلك بعضا من سوء الخصال!"

"نعم يا آنستي."

"هل تقصدين بسوء الخصال شقاوة عادية؟"

"هذا طبيعي."

"أقبل شقاوتهما. فهما صغار.. لكن على شرط ألا ينزلقا إلى الحضيض!"

"الحضيض؟! أتخشين أن يلوث سمعتك بسوء خلقه؟!"

حيرتها كلمتي فواجهتها بسؤالها المتخفي وراء التهكم والضحكة الباردة. جاريت تهكمها وضحكتُ...فلم أُرِد أن أضغط عليها أكثر.

في اليوم التالي حين اقترب موعد مغادرتنا لملاقاة ميلز. سألتها:

"حدثيني عن المربية السابقة.. كيف كانت؟"

"كانت صغيرة وجميلة. قريبة إلى صباك وجمالك."

تمهلت قليلا قبل أن أقول:

"أمل أن يكون جمالها وصباها قد أعاناها في التربية! يبدو لي أنه يشترط في المربيات الصبا والجمال."

"هذا صحيح! فهو يحب كل شيء على هذا المنوال.."

t.me/qurssan

وكأنما تحدثت زيادة عن اللازم، تردد هنيهة ثم أضافت:

"أعني أن ذلك طبع فيه.. في السيد الكبير."

تعجبت من إضافتها فسألتها:

"من كنتِ تظنين ما سأستنتجه من عبارتك دون أن تفسري قصدك بأنك تتحدثين عن السيد الكبير؟"

إحمر وجهها وقالت:

"السيد الكبير.."

"السيد الكبير؟"

"ومن غيره؟"

شعرت أنني أخطأت الحكم عليها بأنها تكلمت أكثر من اللازم. فمن عساها تقصد إلا السيد؟عدتُ أحادثها فيما يهمني وسألت:

"وهل رأت المربية السابقة شيئا مختلفا في الصبي؟"

"شيئا مختلفا؟ تقصدين شيئا مشينا؟ هي لم تخبرني قط بشيء."

"وهل كانت حريصة على عملها؟"

حاولت السيدة جروز أن تكون يقظة الضمير:

"كانت حريصة إلى حد ما.. إلى حد ما.."

"هذا يعني أنها لم تكن حريصة على أداء عملها على أكمل وجه."

"حسنا يا آنستي.. الشابة قد توفيت ولم يعد في مقدور الحكايات أن تفيد، ولا داعي للخوض في حياتها."

قلت بسرعة:

"أقدِّرُ شعورك هذا.. هل.. هل توفيت هنا؟"

t.me/qurssan

"لا.. بل رحلت."

كانت إجاباتها مقتضبة ولم أفهم سببا لذلك. سألتها وأنا بعدُ مصممة على الحصول على إجابات:

"رحلت لتموت في بيتها تقصدين؟"

نظرت السيدة جروز من النافذة، وشعرت بحنقٍ.. لي كل الحق في معرفة ماذا يحل بالشباب في عزبة بلاي! ألححتُ عليها مُكررة:

"أرحلت من هنا مريضة مثلا؟"

"لم تكن مريضة، أو هذا ما أعرفه. لقد رحلت في إجازة قصيرة لبيتها. وكان لدينا فتاة صغيرة تعمل هنا حلت محلها كمربية مؤقتا ريثما تعود. لكن المربية الشابة لم تعد مرة أخرى وسمعنا أنها ماتت."

رحتُ أقلب الكلام في عقلي وأتفحص جميع أوجهه. ثم سألت:

"وما سبب موتها؟"

"لم يخبرني أحد.. أستأذنك يا آنستي فعلي الالتفات إلى عملي."

t.me/qurssan

-3-

كنت أحمل في قلبي كل التقدير للسيدة جروز. فلم أغضب من إجاباتها.

تقابلنا مجددا حين عدتُ مع الصغير ميلز، وكان لقاؤنا حميما طيبا أكثر من أي وقت سبق.

أمامي، كان الصبي بعيدا عن أي شبهات..

كنت قد وصلت متأخرة بعد أن أوصلته العربة إلى المكان الذي سأتسلمه منه. ما أن وقعت عيناي عليه وهو واقف في انتظاري حتى تكشَّفت أمامي بواطنه واضحة بالضبط كظواهره. كان يشع بالبراءة والنضارة تماما كأخته، وكان وسيما بصورة يستحيل تصديقها.

تلاشت من حولي الموجودات وأنا أنظر إليه. كأنما تحاوطه الملائكة وتحميه من شرور العالم.. كأنما لا يعرف هذا الصبي في العالم سوى الحب الطاهر البعيد عن كل دنس.

ظلت الحيرة تلوكني في طريق العودة إلى عزبة بلاي. والغضب ينكزني مذكرا إياي بالخطاب المزعج الذي تلقيته من المدرسة.

في أقرب وقت اختليتُ بالسيدة جروز وقلت لها حانقة بشأن الاتهام الموجه للصبي:

"هذا اتهام لا يصمد أمام أي عقل مفكر.. انظري إليه يا عزيزتي!"

ابتسمت السيدة جروز وقد انكشف أمامها ولهي بسحره وقالت:

t.me/qurssan

"أؤكد لكِ يا آنستي إنني لا أفعل شيئا سوا الرنو إلى مُحياه البديع. ما رأيك؟"

"رأيي في الخطاب؟"

"كنت أفكر في شيء.. ما رأيك في عم الصبي؟ السيد الكبير؟"

"لا أعرف عنه الكثير، لذا فلا رأي لي."

"وماذا عن الصبي؟"

"الطفل مذهل.. اسمعي.. لنتحد سويا ونكشف معا حقيقة الأمر."

مددت لها كفي كي تصافحني على أن يكون ما بيننا عهدا. أمسكت كفي وأطبقت عليها لحظات، ثم بيدها الأخرى أمسكت طرف مريولتها وخلعتها وقالت لي مبتسمة في ود شديد:

"طالما صافحتني.. هل تمانعين في.. في استغلال ذلك الكرم منك؟"

اقتربت مني خطوة ففهمت أنها تريد معانقتي.. لففت ذراعاي حول السيدة الطيبة، وتبادلنا قبلات على الخدين كأختين، قبلات أكسبتنا شجاعة وقوة.

***

حين عاهدت صديقتي على التعاون سويا في تجلي الحقيقة، كنت واقعة تحت تأثير إيمان غريب بأن كل الأحداث ستتكشف انصياعا لمجهوداتنا. لكنني كنت جاهلة مغرورة حين حسبت أن هذا ممكنا.

كانت دروسي لميلز خلال أسابيعي الأولى معه، مفيدة لي أكثر من كونها مفيدة له، حيث تعلمت الكثير من ما لم أكن لأتعلمه في سني الصغيرة هذه.. تعلمت أن أستمتع وتعلمت أن أُمتعُ غيري. تعلمت الانطلاق وخلو البال ومصاحبة الطبيعة والموسيقى العذبة.

كان ثمة شيء خلاب في علاقتي بالطفلين، استولى على جناني وكبريائي معا وشتت تركيزي إلى حد خطير. كان الطفلان رقيقين لا

t.me/qurssan

يتسببان في أي مشاكل من أي نوع. كنت شخصا معتادة على التفكير وتقليب الأحداث والانتهاء إلى استنتاجات. لكن تأثير الطفلين علي شتت ترابط أفكاري وألقاها نحو تفكير مستمر في مستقبلهما. فالمستقبل خشن مهما تنوع وكنت أخشى عليهما من خشونته. كانا كالأميرين وكل شيء يخصهما لابد وأن يكون ناعما رقيقا مبهجا.

***

كل ما حكيت قاد حياتي معهما إلى سكون ودِعة. فكان أي حدث فيها مهما صغر يتضخم ويظهر متجليا مفاجئا.

كانت لي ساعة في اليوم أخلو فيها إلى نفسي وأفعل ما أشاء. وكان الطفلان يتركاني فيها وهي غالبا ما تكون وقت الشاي أو قبيل النوم.

مهما كان حبي للطفلين كنت أتمسك بتلك الساعة ويزداد حبي لها مع زيادة حبي للطفلين. وكنت أختار أوقات خفوت الضياء واختفاء أصوات الطيور وتحول السماء للون الورود.

كنت أدور في الحديقة وحدي وكأنما في جنتي الخاصة. وكان شعوري هذا مُرضيا لغروري ومسليا إلى أقصى حد.

في إحدى تلك الساعات التي أخلو فيها إلى نفسي، كان الطفلان يلعبان على مبعُدة. وسرحت أنا في أحلامي وقصصي التي لا تنتهي. كنت أتخيل أن أرى شابا وسيما قادما من أول الممشى بين الأزهار.. يقترب.. يحييني مبتسما في عذوبة.. هذا كل ما أفتقد الآن.. شابا محبا طيبا.

في نهاية اليوم، وبعد عودة الطفلين للمنزل، أنهيت جولتي في الحديقة والتفتُ عائدة إلى البيت حين هالني ما رأيت. أتحقق حلمي؟!

لقد كان واقفا هناك. عند قمة البرج الذي أرتني إياه فلورا في أول يوم لي هنا. كان البرج ضخما مختلفا في هيئته عن البرج الأقدم المقابل

t.me/qurssan

له على الجهة الأخرى من البيت، يبدو أن هذا البرج قد بُني لغرض آخر غير ما كان يُستخدم فيه البرج الأقدم. كلا البرجين مُصممٌ على الطراز الروماني وكنت أحبهما ويروق لي تخيل أحداث قصص الحب تجري فيهما.

أما وأنا أحملق الآن في الواقف أعلى البرج، فقد أيقنت أنه يختلف شكلا عن ذاك الذي كان في خيالي. وقد أرسى منظر رجل غريب وحيد أعلى البرج عظيم الخوف في نفسي. فأنا شابة قد نشأت في مكان منعزل، ولم أعتد أبدا على رؤية الرجال الغرباء.

كان الرجل - والذي كنت أحسبه من أبناء خيالي- لا يشبه أي رجل رأيته مسبقا ولا يشبه حتى أي مِن مَن رأيتهم في شارع هارلي.

تحيط بي الآن حُجب الغروب وانعزالي عن الصوت والضوء، والسماء الذهبية يخفت توهجها تدريجيا، والرجل ينظر لي من وراء حوائط البرج، جليا كصورة مؤطَرة.

حاول عقلي أن يلقي عليها سمت أي شخص أعرفه، ثم انفلت عقلي من ذعري وراح يضفي عليه ملامح من أهابهم جميعا... كنت أراه ولا أراه، ويرسو في نفسي إحساس أعجز عن وصفه.

ما استقررت عليه هو شعور بالخوف، كيف يكون داخل المنزل رجل أجهله؟! أنا أعرف كل الخدم والعاملين في العزبة، ولم يكن من أراه واحدا منهم. بل إنه يتصرف بارتياح كأن المنزل ملكه، ولا يعتمر قبعة كعادة أصحاب المنازل في منازلهم!

لم يكن ليسمعني لو ناديت، فرحنا نتبادل في تحد النظرات.. كان واقفا ممسكا بالسور، أراه جليا كما أرى كلماتي التي أخطها الآن فوق السطور.. يسير من مكان لمكان ببطء وهو لا يرفع عينيه عني.. يضع يديه في جيبيه.. يسير نحو الركن الآخر.. يستدير، ثم يرحل..

t.me/qurssan

-4-

ثمة سر في عزبة بلاي!

أهناك ما يخفيه عني الناس؟ لم أعد أذكر كم من الوقت انقضى وأنا أفكر في ذلك الأمر. حائرة فزعة. لكني أذكر إنني حين وصلت البيت كان الظلام قد حل.

رحتُ أجول في أنحاء البيت، أرتعش رعبا. أرتعش بردا..

أخيرا قابلت السيدة جروز في الردهة، وألقت هي علي نظرتها الحلوة الطيبة. فأزالت عني كل اضطراب. كانت بالطبع جاهلة بما كنت أفكر في أن أرويه لها، وفكرت مرتين في نتيجة حكي لها ما رأيت.. أستقدر على طمأنتي أو ستفزع أكثر مني؟ انتصر في النهاية إشفاقي على السيدة الطيبة، وزاد في نفسي الرعب واليأس من الخلاص من خوفي.

تمتمت بضع عبارات عن صفاء الجو وجماله، ثم عمدت إلى خلوة أفكر فيها في الشعور الذي يتملكني من كون هذا الغريب قد يغدو مقربا إلى نفسي يوما ما.

يبدو أن الصدمة قد أرهقت حواسي وصرت أتخبط.

***

بعد أيام ثلاثة، داومت خلالها على مراقبة الخدم والتيقن من أنني لم أكن ألعوبة في أيديهم أو ضحية لخدعة ما، خلُصتُ إلى أنه إن كان غريبا في البيت فهو متسلل لا يعرف عنه أحد شيئا. شخص قرر أن

t.me/qurssan

يسرق من أملاك غيره وقتا ماتعا ثم يعود من حيث جاء. أما نظرته غير المبالية لي فما هي إلا نتيجة وقاحته.. الجميل أنني صرت متأكدة أنه لن يعود مجددا بعد أن عرف أنني رأيته.

عدت لبهجتي الصغيرة في حجرة الدرس، والتي لم تنحصر فقط في أوقات قراءة قصص الخيال وقصائد الشعر، بل كانت بهجتي القصوى تكمن في تلذذي بكل ما يوحى صغيراي به إلي. كيف أصف لك شعوري الذي تعدى محبة بين مربية وأطفال إلى شعور أنني أخت لهم من ذات الدم؟

كنت اكتشف بهجة جديدة في علاقتنا كل يوم. لكن تتوقف تلك الاكتشافات عند حدود الغموض الذي يكتنف سلوك الصبي في المدرسة، ولم يكن علي أن أتهاون في هذا الشأن. إلا أن الصبي قد أثبت لي مع الأيام أن كل ما يرمونه به باطلا. وقد وصلني هذا من وجهه الوردي البريء. لم يكن به عيب إلا رقة زائدة تمنعه من التعامل مع مدرسة قذرة مخيفة كتلك التي يرتادها، وها قد دفع ثمن براءته غاليا.

لم يكن ميلز بريئا فقط، بل كان سعيدا سعادة غير عادية لم أرها على مخلوق قط.. لم يكن يعاني الألم لحظة، ولم تتسرب الهموم إلى قلبه مطلقا. لو كان سيء الخلق لما استطاع أن يكون بهذه السعادة، كنت لأجد بقايا شر في نفسه.

لم يتكلم ميلز عن المدرسة أبدا، وكنت احتقرها فلم اذكرها أمامه. وكنت بعد واقعة تحت تأثير ذلك الشيء الخلاب الذي يمنعني من الاكتئاب حتى حين كانت تصلني خطابات من بيتي تنبئني بأن أمور العائلة ليست على ما يرام. كيف أكترث لشيء في العالم ومرح الطفلين يغمرني؟

t.me/qurssan

في يوم من أيام الآحاد، أمطرت السماء حتى أعجزتنا عن الذهاب إلى الكنيسة. هكذا اتفقت والسيدة جروز أن تذهب للصلاة في الكنيسة لو هدأ المطر وقت الغروب.

لحسن الحظ انقشعت السحب عند الأصيل. فأعددت نفسي لرحلتي مع رفيقتي التي قد تقتضي عشرين دقيقة سيرا على الأقدام.

نزلت البهو والتقيت السيدة جروز. ثم أدركت أنني قد نسيت قفازي في حجرة الطعام حين كنت أصلحه صباح اليوم وقت الفطور.

لم يكن الظلام قد عم بعد حين وصلت حجرة الطعام، فأبصرت قفازي ملقى على كرسي هناك. خطوة واحدة إلى الحجرة مكنتني من أن أراه.. الرجل الغريب!

كان واقفا خارج النافذة، استطيع أن أرى ملامحه بدقة رغم قلة الضوء. كان هو نفس المتسلل. ينظر إلى داخل الحجرة في ثبات. ينظر لي.. ينظر من خلالي!

كان يقف عند طرف الشرفة الخارجية، وكنت أراه يملأ حدود بصري سواء نظرت إليه أو نظرت إلى الأرض أو المنضدة.

لم يدم وقوفي أمامه كثيرا لكنني أيقنت أنه تبينني كما تبيَّنته. وقد خيل إلي أن وقفتنا دامت لسنوات. هنا حدث شيء لم يحدث من قبل، أحال نظره عني ونظر للمكان من حولي مدققا. هو لم يأتِ لأجلي. كان يبحث عن شخص أو شيء آخر.

أصطرع جبني وواجبي في نفسي، وانتصر واجبي دافعا إياي خارج الحجرة. بلغت الباب وفي لحظة كنت أقف خارج المنزل. وما أن نظرتُ جانبا حتى رأيت الغريب لا يزال في مكانه. ثوانٍ ثم اختفى عن ناظري.

t.me/qurssan

وقفت حينا. وما كنت لأستطيع تبين مقدار هذا الحين. وما كنت أشعر سوى بالخواء.

كيف وإلى أين اختفى؟ ما الذي حجبه عني؟

مشيت حتى وقفت في ذات المكان الذي كان يقف فيه. ونظرت إلى النافذة في حيرة من أمري وشرعت أنظر إلى الداخل في محاولة لفهم ما كان يفعله بوقوفه في هذا المكان.

دخلت السيدة جروز حجرة الطعام بحثا عني. فرأتني كما رأيت أنا الغريب. وفَزِعت كما فزعتُ. شحب لونها فسألت نفسي إن كان وجهي بهذا الشحوب. تفرست في وجهي ثم سارت على خُطاي خارجة من المنزل متوجهة إلى حيث أقف.

كنت أعرف أنها ستصل لمكاني خلال ثوان. وكنت أعجب. لم خافت السيدة جروز من مرآي؟!

t.me/qurssan

-5-

رأيت السيدة جروز قادمة نحوي مبهورة الأنفاس. محتقنة الوجه. سألتني:

"بالله. ماذا حدث لكِ؟!"

انتظرت حتى اقتربت مني. ثم أجبتُ بسؤالٍ:

"ماذا حدث لي؟! أيبدو أنني على غير ما يُرام؟"

"أنتِ شاحبة كشبح! تفزعينني!"

كنت واثقة من صدق خوفها وتوقعته. لكني لم أقصد أبدا أن أخيفها. لكن لوهلة وسوست لي نفسي بشأن رد فعلها ومبالغتها في إظهاره.. أحقا تبالغ؟ محبتي وتقديري لها أبعدا ذلك الخاطر. فأمسكتُ بكفها وتمسَّكت هي بكفي. وشعرت بقوة كونها إلى جواري.

قلت لها:

"لا أظنني قادرة على الذهاب إلى الكنيسة."

"هل حدث شيء؟"

"نعم.. يجب أن أُعلمُك بما يحدث.. يبدو حديثي غامضا. أليس كذلك؟"

"بعد ما رأيتك عبر النافذة. فتبدين غامضة ككل. مخيفة."

"مخيفة؟ لقد كنت خائفة لا أكثر."

t.me/qurssan

بدا من خلال نظراتها أنها تحاول مقاومة الخوف وإبداء الشجاعة، وكانت تعلم أن مكانتها لا تسمح لها بالتباسط معي أيضا.

قلت لها:

"مبعثُ خوفي هو ما أبصرته منذ قليل في حجرة الطعام، وما رأيته من قبلُ كان أشدُ وقعا."

تصلب كفها حول كفي وهي تسأل:

"وما هذا الذي أبصرته؟"

"رجل غريب ينظر إلى داخل حجرة الطعام."

"رجل؟ أي رجل؟!"

"لم أره مسبقا ولا أعلم عنه أي شيء."

دارت السيدة جروز بعينيها حولنا، فلم تر أي شخص. سألتني:

"وأين ذهب؟"

"لا أعرف."

"هل رأيته من قبل؟"

"أجل، أعلى البرج القديم."

ازدادت نظراتها حدة وسألت:

"أتعنين أنه دخيلٌ على المكان؟!"

"دخيل.. بلا شك."

"وأنت لم تخبريني حين رأيتِه أول مرة!"

"لم أخبرك.. أجل.. كانت لدي أسباب تدفعني للكتمان، أما الآن فأرى أنكِ ستفهمينني."

t.me/qurssan

حملقت في السيدة جروز مستبينةً ما أنا فيه من تغيير وقالت:

"أنا لا أفهم شيئا، وكيف أفهم إن كنتِ أنتِ نفسك لا تفهمين؟!"

"أنت مُحقَّة."

"ألم تر هذا الدخيل قط إلا عند البرج؟"

"وخلف النافذة منذ قليل."

دارت السيدة جروز بعينيها حولها مجددا، ثم سألت في قلق:

"وماذا كان يفعل أعلى البرج؟"

"لا شيء سوى التحديقُ بي!"

فكرت السيدة جروز لحظة ثم سألت:

"يبدو من السادة؟"

لم أحتج لتفكير في الإجابة وقلت من فوري:

"لا!"

حدقت في السيدة جروز متعجبة من سرعة ردي. فكررتُ:

"لا.."

"أكان منفردا؟ لم يكن معه أحد من القرية؟"

"لا أحد مطلقا.. وواثقة مما أقول."

زفرَت مُستريحة. وراحت تستعيد روعها. إلا أن خطر ببالها سؤال مزعج. فقالت بحدّة:

"ولكن إن لم يكن سيدا..."

"فمن يكون؟ أو.... ماذا يكون؟ أمر مرعب!"

t.me/qurssan

للمرة الأخيرة. جالت السيدة جروز بعينيها في المكان حتى رست عند الأفق. وقالت في عزم:

"علينا أنا نكون في الكنيسة الآن."

"لا أظنني قادرة.."

"ألا تعتقدين أن الصلاة قد تهدئ روعك؟"

"لا أظنني قادرة على المشي إلى الكنيسة. ثم كيف أترك الأطفال وحدهما في حال وجود دخيل حولنا؟"

فكرت السيدة جروز قليلا وشردت، ثم سألتني:

"متى رأيته عند البرج؟"

"عند أصيل يوم من أيام منتصف الشهر."

"عند الأصيل؟"

"لم يكن الظلام قد خيم، ورأيته بوضوح رؤيتي لكِ الآن."

"وكيف دخل إذًا؟"

ضحكت مجيبة:

"بل وكيف خرج! لم تتح لي فرصة لسؤاله. كما أنه لم تتح له الفرصة اليوم لدخول المنزل."

"أتظنين أنه ما زال يتسكَّع حول المكان؟"

"أرجو أن يكتفي بهذا."

تركت يدي واستدارت عني قليلا.. تسمرت مكانها لحظة. قلت لها:

"أتذهبين إلى الكنيسة؟ رافقتك السلامة. أما أنا فعليَّ رعاية الطفلين."

t.me/qurssan

استدارت لي وقالت:

"أتخافين عليهما؟"

"وأنتِ؟ ألا تخافين عليهما؟"

لم تجب سؤالي. واقتربت من النافذة وأسندت رأسها إليها للحظات ريثما أتابع أنا حديثي قائلة:

"أترين من مكانك إلى أي مدى يستطيع تبين محتويات المنزل ومن فيه؟"

"كم لَبِث هنا؟"

"دقائق حتى خرجت إليه.. وكأنه كان ينتظر خروجي."

بدت على وجه السيدة جروز تساؤلات عدة وهي تدير وجهها لي قائلة:

"ما استطعت الخروج لو كنت مكانك."

ضحكتُ مجددا وهتفت:

"لو كنتُ أنا مكاني ما استطعتُ. لكن كان علي أن أفعل ما يمليه علي واجبي تجاه الطفلين ورعايتهما."

"هو واجبي أنا أيضا. كيف يبدو هذا الغريب؟"

"لا يشبه أحدا نعرفه، لا يعتمر قبعة.. شعره أجعد أحمر اللون، شاحب يحيط وجهه سالفين منفوشين. حاجبيه مقوسين كثيرا الحركة لهما ذات لون شعره، تحتهما عينان حادتان صغيرتان؟ كذلك هو واسع الفم رقيق الشفتين. وكان حليقا كالممثلين.. "

"كالممثلين؟"

t.me/qurssan

"أنا لم أر في حياتي ممثلا، لكنني أتصورهم بهذه الهيئة. كان طويلا نشيطا معتدل القامة.. لكنه لا يشبه السيد الكبير من أية ناحية."

امتقع وجه صديقتي وأنا أصف لها الغريب، واهتزت عيناها المتسعتين في محجريهما، وفغرت فاها عجبا وارتباكا سائلة:

"لا يبدو كسيدا مهذبا؟ هه؟"

"أنت تعرفينه!"

حاولت التماسك قدر جهدها وقالت :

"هو وسيم.. أليس كذلك؟"

"وسامة ملحوظة."

"وملابسه؟"

"يبدو أنه لا يرتدي ملابسه الخاصة، كأنها ملابس شخص غني وقد استعارها منه."

قالت وكأنما في النزع الأخير:

"إنها ملابس السيد الكبير..."

سألتها:

"أنت تعرفينه!"

"إنه كوينت.. "

"كوينت؟"

"بيتر كوينت.. مرافق السيد وخادمه الخاص حين كان يحيا هنا مع ابني أخيه."

"ومتى كان السيد هنا؟"

t.me/qurssan

كانت ثمة فجوة في الفهم بيني وبينها، وكأنها تظنني أفهم كل ما تقول، بينما أنا أفهم ما استنتجته ببساطه. اكملت هي حديثها:

"هو لا يرتدي قبعة قط إلا أمام السيد، وقد كان الرجلان هنا العام الفائت، ثم غادر السيد إلى بعض عمله وظل كوينت وحيدا."

"وحيدا؟"

"وحيدا معنا. وقد كان السيد كلفه بحراستنا"

"ثم...؟"

صمتت فاشتعلت نيران الفضول في نفسي، اتسعت عيناي وأنا أنظر إليها، فباحت بسرها أخيرا:

"لقد رحل هو الآخر."

"إلى أين؟"

"لا أحد سوى الله يعلم إلى أين يرحل الموتى.. لقد مات.."

كدت أنهار باكية وأنا أسألها:

"مات؟!"

كانت المرأة متيبسة الأوصال، واقفة في مكانها كأنها نبتة ذات جذر أنبتت دهشة ورعبا.. قالت:

"نعم، لقد مات السيد كوينت."

t.me/qurssan

-6-

ما حدث كان عينة من الرعب الذي سنحياه لاحقا أنا ورفيقتي. لم نجد لي ولها ملجئًا سوى حجرة الدراسة. فنحبس نفسينا فيها حتى نهدأ ويطمئن قلبينا.

لم تر السيدة جروز الشبح. لكنها رأت المربية المتوفاة مرة أو اثنتين وقد ظننت أنها تهلوس. فصدقت كل ما قلت دون أن تشكك في عقلي. بل وراحت تهدئني بطيبتها وتخفف الرعب الذي ألمَّ بي. كانت نعم الأخت والعون.

تعاهدنا مجددا على تحمل مسئولياتنا. وقد كانت مسئوليتها أعظم من مسئوليتي وكنت أحتاج بعض الوقت كي أتأكد من أن رفيقتي قادرة على تحمل نصيبها من الهم.

خرجت إلى الحديقة أتنشق الهواء وكذا فعلت السيدة جروز. وكانت القوة التي منحتني إياها أمس لا تزال حاضرة في نفسي.

رحتُ وإياها نعيد تفكيرنا عما حدث بالأمس تحت ضوء النهار. فسألتُ السيدة جروز:

"قلتِ إنه كان يبحث عن شيء داخل المنزل."

"كان يبحث عن ميلز الصغير. فما يريد سواه."

"وكيف عرفتِ؟"

"أعرف.. أعرف! ألا تعرفين تلك الحقيقة؟ ألا يحدثك قلبك بها؟"

t.me/qurssan

الحق أنه قد وقع في نفسي أن الغريب باحث عن ميلز بالذات، لكنني لم أجد لظني تفسيرا. وها هي تؤكده السيدة جروز. سألتها:

"وماذا يحدث إن رأى الصبي؟"

"سيأخذه ليلحق به وبالمربية السابقة!"

كان هذا افتراضا مرعبا، لا أعرف كيف تحملته. ظللت طيلة تمشيتنا أؤكد لنفسي حدسي أنني سألقى الرجل مرة أخرى، وأن علي مواجهة الأمر وحدي فهي مسئوليتي، وإن وصل الأمر إلى التضحية بنفسي كي أذود عن الطفلين سأفعل.

سألت السيدة جروز:

"لمَ لم يذكر أي من الطفلين لي شيئا عن المربية وخادم عمهما؟ فكما حكيت لي فإنهما أعتادا قضاء الوقت مع الرجل والمرأة. لم يشيرا حتى إلى اسميهما أو أي شيء عنهما."

"إن فلورا لا تذكر الخادم، ولم تسمع عنه ولا تعرفه."

"لعلها لا تذكر. لكن ميلز يذكره ويعرفه."

فزعت السيدة جروز وصاحت:

"بالله لا تسأليه عن شيء!"

"لا تقلقي. لكن الأمر غريب.. لماذا لم يذكره أبدا وقد أخبرتني أنهما كانا على علاقة صداقة قوية؟"

"لم تكن صداقة من جانب الطفل، بل كان كوينت متوهما، وكان يبيح لنفسه أكثر مما يحق له."

تخيلت ملامح وجهه مع ما وصفته به السيدة جروز من خلق معوّج، فشعرت بالاشمئزاز. سألتها:

t.me/qurssan

"أكان يبيح لنفسه توهماته تلك مع الطفل؟!"

"كان يتيحها مع أي إنسان."

كان ما تقوله عن كوينت. وتوهمه لحرية أكبر في التعامل مع الآخرين ومع المنزل نفسه ينقر ناقوسا في عقلي. فأغلب الخدم هنا لديهم ذات الأوهام في غياب سيدهم. فقد يتيحوا لأنفسهم الاستمتاع بالمنزل وأغراضه دون وجه حق لهم.

فكرتُ في أن السيدة جروز ربما تخفي عنى المعنى الحق لما قالته بشأن (أوهام) كوينت. سألتها في الليل وهي خارجة من حجرة الدراسة بعد أن أنهينا جلستنا المسائية:

"أعتقد من خلال حديثك أن كوينت كان رجلا سيئ السمعة.. أليس كذلك؟"

"لقد عرفت ذلك خلال تعاملي معه. لكن السيد لم يكن يعرف."

"ألم تخبريه أبدا؟"

"لا. فهو لا يهتم لسماع أي شيء، ويكره الشكوى من أحد طالما كان على علاقة طيبة به ولم يؤذه."

قاطعتها:

"فبماذا يعبأ إذن؟!"

كان ما سمعته متفقا مع فكرتي عن السيد. فهو لا يحب أن يتحمل مصاعب في سبيل من يحب. ولا يكترث كثيرا حين يصل الأمر لاختيار رفاقه والمقربين منه. حاولت أن أعرف من السيدة جروز ما تعرفه. فصمتُ.

قالت:

t.me/qurssan

"لقد وعدتك أن أخبرك بكل شيء."

كانت السيدة جروز تثق لسبب ما في حسن تفكيري وتقديري للأمور، لكنني كنت بالفعل خائفة مضطربة. سألتها:

"ولم كنتِ خائفة ولم تحكِ لي منذ البداية؟"

"عليك أن تخافي مما يستطيع كوينت هذا فعله. فهو خبيث ماهر."

جاهدت كي أخفي وقع عبارتها علي، وسألتها:

"أهذا كل ما كان يخيفك؟ ألم تخشي تأثيره على الصغار؟"

كررت السيدة جروز كلمة "تأثيره" بوجه مرتعب. فقلت مفسرة متلعثمة:

"أعني أنكِ كنتِ مسئولة عن الطفلين وقتها."

قالت مدافعة عن نفسها بلهجة يشوبها أسى:

"لم اكن مسئولة عنهما وقتها. كان السيد يثق في كوينت وهو من عينه حارسا علينا. أعتقد أن كوينت هذا كان معتل الجسد فأرسل به السيد إلى هنا حيث يساعده جو الريف على التعافي. كان هذا هو قرار السيد وهو يعرف ما يجب فعله بشأن الطفلين.. لا شأن لنا بقراراته."

حاولت كبح جماح ثورتي تجاه كلامها. كيف لشخص مسئول أن يكون بهذا الإهمال في حق أبناء أخيه.

"واحتملتِ أنتِ كل هذا يا سيدة جروز؟"

"لم أحتمل ولا أحتمل الآن!"

انفجرت البائسة تبكي، ومنذ ذلك اليوم فقد شملت الطفلين برعاية بالغة ورقابة عاتية.

t.me/qurssan

كلما كنا نعود إلى فتح الموضوع أنا ورفيقتي كان يعود اضطراب مشاعرنا، وتهاجمنا مخاوفنا كأننا نتحدث بهذا الشأن لأول مرة. أكثر ما كان يؤرقني هي كتمانها عني أمر كوينت، وأنا التي لا أكتم عنها شيئا. تُرى ماذا تخبئ عني؟

واثقة أنا من أن كتمان السيدة جروز لبعض الأمور لم يكن عن خبث أو مراوغة، لكنه كان عن خوف. أنا نفسي أخاف حين أسترجع حكاية موت كوينت، وكيف أن فلاحا كان ذاهبا لحقله مبكرا ووجد الرجل ملقى جثة هامدة على الطريق. عرفوا من فحص الجثة أن كوينت كان ثملا وانزلق في طريقه إلى البيت على سطح ثلج زلق. وكلما مررت على هذا المكان أكاد أرى كوينت فاقدا للحياة منطرحا أرضا غارقا في دماء رأسه المشجوجة.

يا للأقاويل التي أحاطت بذلك الحادث، فكثرت التكهنات وأثيرت الشائعات عن سبب موته الحقيقي، والذي لم يوقن أحد بحقيقته.

لكن إعجابي بنفسي كان يزيد يوميا، حين أُتمُ -رغم المخاطر والمخاوف- دوري على أكمل وجه. ويمر يوم آخر في سلام والطفلين آمنين، فلم يكن لهما سواي، وكنت لهما كحجاب أبيض أحجب عنهما شر النفوس وأتلقى عنهما خبث الطوايا. أود لو أصفق لنفسي إعجابا!

أحكمت مراقبتي عليهما طيلة الوقت وقد أعياني هذا وأرهقني، وإن طال بي أمر مراقبتهما الدائمة قد أُجن. ما أنقذني أن الأمور قد أتخذت مسلكا آخر ولم يطل الشك والقلق بي، بل أسلمتني الأيام ليقين مخيف.

في أصيل أحد الأيام كنت أجول وتلميذتي في الحديقة، وكنا قد تركنا ميلز على كرسيه الوثير في المنزل كي يفرغ من قراءة كتاب يطالعه.. أسعدني أن أتركه لهواية يحبها وقد كان مائلا للاستقلال

t.me/qurssan

وممارسة هواياته منفردا، على عكس أخته التي كانت تفضل المكوث معي وملازمتي. تماشينا قرابة النصف ساعة متحرين الظلال. فقد كانت الشمس في كبد السماء تُلهب الهواء من حولنا.

كانت كأخيها. تحاول أن تتركني وحدي قدر الإمكان وتسير على مسافة مني كي لا يضايقني لزومها جواري. وكانت تلك من أفضل خصال الطفلين. خفة وجودهما ومراعاتهما للآخرين.

حين كانت تبتعد كنت أخلو إلى أحلام يقظتي. عن الشاب الوسيم الذي سيأتي لي باسما عند طرف الممشى. عن كوني أميرة تحيا في قصرها المنيف. تسحبني الأحلام في دوامات البهجة فأنسى أحيانا حقيقتي ووظيفتي.

كانت فلورا تلعب عند ضفة البحيرة. وكنا قد درسنا البحيرات منذ أيام في الجغرافيا وكانت هي تتخيل البحيرة بحر آزوف.

فجأة. أبصرت عن الضفة البعيدة من بحر أزوف – البحيرة سابقا- زائرا جديدا أرسل في ظهري قشعريرة قاتلة. حاولت أن أقف كي أتبينه. لكني هويت مكاني وسقطت من بين يداي القطعة الفنية التي كنت أطرزها. من فوق مقعدي الحجري رُحت أحاول التدقيق في حقيقة ما أرى.

كانت الأشجار والشجيرات تلقي ظلالا متشابكة على المكان، لكن أشعة الشمس كانت تتسرب من بين الأغصان. وكنت أرى ما أراه كأوضح ما يكون. وأتساءل في قرارة نفسي عن أحقية الواقف هناك في وقوفه. بل وعن حقيقة وجوده من الأساس.

لعله ساعي بريد أو صبي بقال؟! لكن ما استقر في نفسي عما أراه لم يكن قريبا من ذلك التفسير.

t.me/qurssan

أدرت نظري نحو فلورا، التي كانت تبعد عني حوالي عشر ياردات، وكان قلبي موشكا على التوقف جراء الخوف من أن ترى هي الأخرى ما أراه.. توقعت أن تدوي صرخاتها في أي لحظة ما، وهذا سيجعل الوضع حقيقي لا فرار من مواجهته. انتظرت الصرخة لكنها لم تأت. لماذا؟

كنت موقنة أن الفتاة رأت ما أراه، لكنها استدارت وأولت ظهرها للماء، وانحنت تمسك بقطعة خشب تلعب بها، وكانت ملامحها مضطربة وروحها مثقلة. راحت الطفلة تجمع الخشب وتبني سفينة صغيرة بشراع، فوليت أنا اهتمامي لمن كانت واقفة هنالك تحت الظلال..

t.me/qurssan

-7-

لا أعرف كيف انقضى الوقت حتى وجدت السيدة جروز. فأمسكتُ بها، وما زلت أذكر صوتي وأنا ملقاة بين ذراعيها أنشُج.

"منذ ساعتين.. أحقا كانتا ساعتان؟ كنا وفلورا في الحديقة و.... "

حكيتُ لها. واستقبلت حكايتي كلكمة في معدتها. تنهدت وقالت:

"ألم تحادثك فلورا عن شيء؟"

"ولا كلمة. وهذا ما يفزعني! لقد أبقت سرا كهذا طي الكتمان وهي بعد طفلة في الثامنة!"

تملك الفزع من المرأة فصمتت حينا ثم تساءلت:

"لعلها لم تر من رأيته.. كيف تأكدتِ أنها قد رأته؟"

"لقد رأيت كل شيء وكانت الطفلة واعية لما يحدث."

"أتعني أنها كانت واعية لوجوده؟"

"بل لوجودها."

"لوجودها؟"

"لقد رأيت شخصا آخر غير كوينت هذه المرة، شبح شرير بشع.. شبح امرأة متسربلة بالسواد. شاحبة الوجه. مذعورة الملامح. وكانت تنظر إلينا عبر البحيرة."

"كيف جاءت ومن أين؟!"

t.me/qurssan

"من حيث يجيئون! بدت لي وكأنما نبتت من الأرض."

"ولم تقترب منكما؟"

"دون أن تقترب أحدثت من الأثر ما كانت لتحدثه لو اقتربت.. "

انتفضت صديقتي وتراجعت خلفا وسألتني:

"أكانت امرأة غريبة لم تريها من قبل؟."

"لم أرها أبدا.. لكن الطفلة تعرفها.. أنتِ أيضا تعرفينها. كانت هي المربية السابقة.. تلك التي ماتت!"

"الآنسة جيسيل؟!"

"هي.. ألا تصدقيني؟"

"وكيف تعرفينها؟"

لم أعرف كيف أشرح لها معرفتي بها. فقد ومضت معرفتها في ذهني فجأة.. قلت:

"اسألي فلورا ستؤكد كلامي."

ما أن أتممت عبارتي حتى تراجعتُ عنها مذعورة وأردفت:

"بالله لا تسأليها.. ستنكر وتقول إنها ليست هي.. ستكذب."

"لم تزعمين ذلك؟"

"واضح.. ففلورا لا تريدني أن أعرف أنها رأتها ولا تريدني أن أعرف بشأن المرأة من الأساس."

"سأتركك وراحتك. لكِ ما تظنين."

"الأمر أكبر من الظن! كلما تعمقت وفكرتُ كلما ذُعِرت! لم أعد أعرف ما الذي أرى أو أشعر.."

t.me/qurssan

"أتخشين أن تلقينها ثانية؟"

حاولت أن أشرح لها قائلة:

"ليس خشيتي من رؤيتها ما يقلقني.. لم تخفي الطفلة أمر كهذا؟! أتفهمينني؟"

تداعت السيدة جروز إلى المقعد خائرة القوى، هذا معناه أنها قد مالت إلى موقفي وفهمتني، وقربما تستسلم تماما لرأيي. قالت:

"يا عزيزتي، علينا أن نبق على يقظة تامة."

"لعل المربية تحب فلورا؟"

"أو هي امرأة مختلة يروق لها أن تخيف الأطفال!"

"لعلها مجنونة أو ساذجة."

"الله وحدة يعلم، وما لم يكن لديك دليل على سذاجتها، فوجودها مفزع!"

صمتت السيدة جروز برهة، ثم سألت في ضعف:

"بالله خبريني كيف عرفتِ إنها المربية؟"

"إذن أنت تعترفين أنها هي!"

أعادت سؤالها في بساطة:

"كيف عرفتِ؟"

"عرفت بما رأيته منها ومن نظراتها."

"أكانت نظرات شريرة؟"

"لا يا عزيزتي.. ما كنت أخاف لو كانت نظراتها شريرة، هي لم تنظر إليَّ قط في البداية، ولم ترفع عينها عن الطفلة، ثم ما لبثت أن نظرت

t.me/qurssan

لي نظرة عدم رضا وغضب.. ثم ولت نظرها عني إلى الطفلة وبدا على مُحياها عزم راسخ على شيء لا يمكن وصفه."

"أي شيء؟"

"كان لديها عزم على الإمساك بالطفلة."

ارتعدت السيدة جروز وقامت إلى النافذة ترنو خلالها إلى الخارج. اكملتُ حديثي:

"كانت فلورا تعي كل هذا.. تعي أن مربيتها تكرهني وتريد الاستحواذ عليها لذا لم تخبرني."

سألت السيدة جروز شاردة:

"تقولين أنها كانت متشحة بالسواد؟"

"سواد حزين يشي بالفقر، وكانت ملابسها بالية."

تدريجيا وقعت السيدة جروز في حبائل منطقي. فهي سيدة تضع الأمور في نصابها على أيه حال. قالت هي:

"كانت أنيقة في حياتها. أناقة شخص مهين السمعة."

اقتربت منها في بطء وسألتها:

"أتعنين أنها .. كانت سيئة السمعة فعلا؟"

مجددا أحتوى كفاها كفي. كانت تمدني بالقوة كي أثبُت عند سماع ما سوف تكشف عنه كلماتها.

"كانت هي وكوينت سيئا السمعة."

كانت الحقيقة صادمة لكلتينا بذات القدر. قلت:

t.me/qurssan

"أنا أُقدر نبل أخلاقك سيدة جروز. ذاك الذي منعك عن كشف حقيقتهما عني، وإخفاء سرهما عن الجميع. لكن آن الأوان أن أعرف كل شيء عنهما. الطفلان يواجهان خطرا محدقا سيدة جروز."

أومأت برأسها معلنة أنها توافقني الرأي. لكنها لم تقل شيئا آخر. فأردفتُ:

"لابد أن أعرف كل شيء الآن يا سيدتي. بماذا ماتت؟ هيا قولي لي! أكان بينها وبين كوينت شيء؟"

"كان بينهما كل شيء."

"على رغم اختلافهما؟"

"كانا يختلفان في المكانة والحالة العامة. إلا أنها تغاضت عن كل هذا. فقد كانت امرأة وقعت في الحب."

رحتُ أقلبُ الأمر على وجهه كافة مرات ومرات حتى فهمت ما ترمي إليه رفيقتي. أكلمت هي حديثها:

"كانت هي امرأة. وكان هو في الدرك الأسفل من الانحطاط."

ها قد تكلَّمَت. ولم أعد في حاجة للإلحاح عليها. لم يكن لدي ما يمنع من قبول ما تقول عنهما. وقد قابلت كوينت وعرفت سماجته ووقاحته وسوء خُلُقه. لقد كان في أخلاقه كلب وهو أمر لا يحتمل الشك لدى السيدة جروز.

أردفت رفيقتي:

"لم أر رجلا في حياتي مثله. كان يفعل ما يشتهي مع من يشتهي.."

"أكان هذا خلقه معهم جميعا؟"

t.me/qurssan

خيل إلي أن الآنسة جيسيل قد بُعِثت في عيني رفيقتي، وتخيلتها للحظة حية واقفة عند البحيرة. بدا لي أنها مذنبة قدر ذنب كوينت. فقد وافقت على ما يريد ومنحته إياه. إلا أن السيدة جروز باغتتني قائلة:

"يا للشابة المسكينة. لقد كلفها حبها الكثير."

"إذن أنتِ تعرفين سر موتها؟"

"لا.. لا أعرف شيئا، وسعيدة أنا أنني لا أعرف."

شكرت الله أنها كانت تباعد بيني وبين معرفة هذه الأمور. لكنني مضطرة لكشف الحقائق. سألتها:

"لكنكِ لم تكوّني رأيا عن سبب رحيلها، أليس كذلك؟"

"هي ببساطة لم تستطع أن تقيم هنا.. والسبب؟ لا أعرف.."

"أتراها كانت تعاني مما أعاني الآن؟"

انفجرتُ في البكاء وقد شعرتُ أنني قد أُحيق بي. وأنني لا أجد مخرجا ولا تفسيرا لما يبتلعنا من غموض. ضمتني إلى صدرها ففاض بي الأسى. ورُحتُ أنشُج وأقول:

"إن هذا أقصى شر يمكن تصوره! لو كنت عاصرتهما ما كتمت حقيقتهما ولا حميتهما."

t.me/qurssan

-8-

في الليلة التالية أمضيت ورفيقتي الليل في حجرتي، تحكي لي كل ما خفي عني، وألح عليها في رسم كل تفاصيل الشخصيات حتى عرفتهما حق المعرفة. وكلما عرفتهما وعرفت عنهما، لمتها عن إخفائها لي ما تعرف، لكن كل ما أهمني الآن هو البحث عن مهرب لما نحن فيه.

وفي الصباح، تماشينا أنا وفلورا، وبحثت طويلا في لُجة عينيها الزرقاوين عن الراحة التي كانت تشيعها في نفسي. لكني لم أجد لي راحة أبدا.

كانت الطفلة كما اعتدتها من براءة وملائكية، لكنني كنت ساذجة حين ظننت أن الباطن دوما يكون كمثل الظاهر. حاولت جاهدة أن أبحث عما اعتدته من راحة في وجود الطفلين، لكن علاقتنا آلت إلى علاقة معتادة ولم أستطع أن أعد لراحتي وانهاري بوجودهما. لقد رأت الطفلة الشبح وتحاول أن توهمني أنها لم تر شيئا، لكنها كانت تتفحصني ونحن عند ضفاف البحيرة في محاولة منها لمعرفة إن كنت رأيت أنا الشبح أم لا. وأثناء تقصيها ذلك كانت تفرط في اللعب وتدعي الاندماج في غناء عال مُشتَّت.

لحسن حظي أنني اندمجتُ في هذا الاستعراض الذي تقوم به، ولولا ذلك ما كنت لأحتفظ بهدوء أعصابي. وما كان علي أن أنسى مشكلتي الأولى بشأن ميلز وأخلاقه. فمنذ جاء وأنا لم أر منه بادرة سوء خلق، بل كان آية في اللطف والطيبة.

t.me/qurssan

عرفت من السيدة جروز أن الطفل وكوينت كانا على علاقة وثيقة لمدة سبعة أشهر. كان مفهوما أن تكون تلك العلاقة محل انتقاد من السيدة جروز. إلا أن الآنسة جيسيل أبعدت السيدة الطيبة عن التدخل في هذه العلاقة. لكن السيدة جروز لم تستسلم. وانفردت بميلز وأعلمته أن كل إنسان يحترم نفسه عليه أن يلزم حدوده ولا يتعدى مكانه الذي إليه ينتمي.

أحببت أنا أتأكد من كونها أوصلت لميلز التحذير كاملا فسألتها:

"هل ذكّرته أن كوينت كان شخصا سيئا؟"

"نعم، ذكرته. وكان رده: نعم، إنه حقير."

صمتُ هنيهة ثم سألتها:

"ولم يخبر كوينت لم قلتِه له عنه؟"

"لا. وما كان يستطيع أن يفعل."

كانت السيدة جروز تحاول إقناعي أن الطفل لا يستطيع أن يخبر كوينت شيئا كهذا.. أردفَت:

"أنا واثقة أنه لم يبلغه. لكن الطفل كان ينكر أمورا معينة."

"أي أمور؟"

"في فترة علاقتهما القريبة، كان كوينت يعامل الطفل كأنه مؤدبه، وكانت الآنسة جيسيل تعيش عيشة السيدة المدللة. كان هذا واضحا حين كانا يخرجان ومعهما ميلز."

"والآنسة جيسيل لم يكن يعنيها الأمر ولم تمنعه طبعا. ألم يشكو ميلز من تلك المعاملة؟"

t.me/qurssan

"لا.. هو لم يتحدث عن ذلك مطلقا. وحين لمّحت له أنني أعرف أنكر تماما أن شيئا كهذا يبدر من كوينت تجاهه."

"إذن أنتِ أدركتِ أنه يعرف ما بين التعيسين!"

صاحت السيدة جروز قائلة:

"لا أعرف.. لا أعرف!"

"بل أنتِ تعلمين يا عزيزتي.. إلا أنكِ لا تملكين جرأة جموح التفكير مثلي. وما زلت تختبئين خلف الحياء والرقة. في الماضي كنت تجمعين معلوماتك في صمت. فتولّد عن ذلك بؤسا في نفسك. وها أنا قد جئت أنتزع عنك البؤس. أخبريني ولا تخشي شيئا. ثمة خطب في الصبي يدفعه للكتمان...لكن.. إلى أي مدى وصلا بالصبي؟!"

قالت السيدة جروز في حياء:

"لا أظنهما وصلا به إلى شيء غير شريف."

"الآن قد زال العجب من نفسي بشأن خطاب المدرسة."

استعادت السيدة جروز بعض طبيعتها قائلة:

"لو فرضنا أنه قد تأثر بما.. بما رآه منهما. فكيف يكون بهذا السوء في المدرسة. ويكون ملاكا في البيت؟!"

"أنت مُحقّة.. كيف؟ ذريني أياما أقلب الأمر في عقلي حتى أصل إلى شيء.. لكنني أطلب منكِ أن تحكي كل شيء مجددا ولن أقاطعك."

"هناك طرق لن أستطيع خوضها الآن."

"لو اعتبرنا أن كوينت كان دنيئا وكانت الآنسة جيسيل تتستر عليه. وأنتِ تعرفين وتتسترين عليه أنتِ الأخرى. فلا مفر عندي من اعتبارك شريكة لهما."

t.me/qurssan

ثم حولتُ الحديث بيننا إلى أمورٍ عادية، كي لا أضغط على السيدة جروز. وقد اعتبرت أن ما باحت به من ذكرياتها كاف مؤقتا.

قلتُ أخيرا:

"كذِب ميلز بشأن ما حدث يحتاج إلى تشديد المراقبة عليه الآن."

أخجلني أن أرى في وجه رفيقتي شفقةً بالصبي، وكيف كانت تغفر جميع زلاته فورا دون أن تعيد التفكير فيها لحظةً. قامت إلى باب حجرة الدراسة التي كنا فيها، وقبل أن تخرج استدارت وقالت:

"افعلي ما ترينه في صالحه. لكن لا تُدينينهُ فهو طفل."

"أنا أدينه يا عزيزتي لأنه يخفي عنا ما يحدث. لكنني لا أدينه بشيء آخر لا نعرف حقيقته. فنحن لا نعرف ما حدث في المدرسة مثلا. فكيف أظن به الظنون أو أحكمُ عليه بالذنب؟ علينا أن نراقب وننتظر."

t.me/qurssan

-9-

وانتظرتُ. وانتظرت..

وجرفت الأيام بعضا من خوفي وأنا بعد لا أعلم شيئا جديدا عن تلميذي ميلز. ومع الوقت استسلمتُ تمامًا لوداعة الطفلين وهما غافلين عن كوني أعرف عنهما ما أعرف، وما كانت معرفتهما تعنيني كثيرًا.

كان يُنغِّص علي اختلاف ما أُظهر لهما عما أُبطن، فعندما كنت أضُمهما في محبة، كنت أشعر أنني خائنة. ولا أعرف إلى أي غورٍ تهوى بي تلك الخيانة وأنا أقترب منهما فقط لأحسِن مراقبتهما.

كانا هذه الأيام شغوفين بي، وقد أدركت أنه لا شيء أقوى من مشاعر طفل مُهمَل يمنحها لمن يعتني لأمره. كانا يبالغان في مديحي إلى أقصى حد. وكان مديحهما هذا يطمئنني إلى أنني أحسنُ إليهما ولا يتأثر إحساني بشكوكي.

أحيانا ما كان يخيل لي أن علاقتي بهما تسير إلى هدوءِ حالٍ وطريقٍ طبيعي. لا أدرس في طريقنا هذا أحوالهم ولا يخفون عني شيئا.

تطورَت دروسنا لمسرحيات ننفذها متنكرين على هيئةِ حيواناتٍ أو شخصياتٍ تاريخية. وقد كان ما نفعله يُدهِش السيدة جروز وتُدهشها أكثر النتيجة الملحوظة على تحصيل الطفلين ومهارتهما في حفظ المعلومات.

t.me/qurssan

مع براعة الطفلين، خاصة ميلز، بدأت أفكرُ في أن ننقل الطفل من تلك المدرسة التي لا يقدِّرونه فيها حقَ قدره. كان طفلًا ذكيًا حتى أظنني أقل من مستواه، وأخشى أن ذكاء ابنة قس قد يُفسد عليه لمعانه.

وكان فذًا في الموسيقى، فكان يغلفنا بشذى عزفة، ويُحيينا في عالمٍ سحري خيالي، حتى إذا انتهى عزفه خُيل إلينا أن آثار موهبته قد غزلت حولنا عالما قصصيا ساحرا.

الفتاة كانت رائعة أيضا، بل أنهما كانا على انسجامٍ تام وتوافقٍ، حتى أن أحدهما لم يكن يتشاجر أو يشكو من الآخر. وكان في هذا اكتمال طفولتهما وتفرُّدهما.

لكن.. أأنسى كل شيء عن الحوادث الغامضة في عزبة بلاي وأستسلم للحلم الذي أحياه؟ عليَّ أن أجدد عزمي وأقطع طريقي لنهايته.

لابد..

***

لم يكن أمامي ما أفعله في تلك الأمسية..

أحسست بذلك الشعور الذي مرَّ بي يوم وصلتُ عزبة بلاي..

كنت أقرأ في حجرتي رواية من مكتبة العزبة الثمينة، والتي تحوي عددًا هائلًا من الكتب، منها ما لم يُكتب لها الشهرة الواسعة. اخترت قصة أميليا لمؤلفها فيلدنج، وكما ذكرتُ رحتُ أطالعها في ساعةٍ متأخرة.

كان سرير فلورا في ركن حجرتي، تحجُبُني عن مرأى وجهها الجميل ستائرٌ بيضاء تحاوط الفراش.

t.me/qurssan

كنتُ أقرأ، وقد واتاني فجأة خاطر بأن أنظر نحو باب الحجرة.

مرت لحظات استعدتُ فيها ذكريات يومي الأول وأصوات الخطوات التي سمعتها ليلتها. لم يكن ما أسمع الآن هو صدى ذكرياتي. هناك صوت بالفعل.

تركتُ كتابي جانبًا، ووقفتُ وتناولتُ شمعةً، وخرجت مباشرة من الحجرة مُغلِقة الباب خلفي في هدوء كي لا أوقظُ الطفلة.

لا أعرف حتى الآن من أين واتتني الشجاعة وباغتني الإصرار كي أفعل ما فعلت. قطعتُ الردهة ممسكة بشمعتي حتى اقتربتُ من النافذة المطلة على السلم. عندئذٍ شعرتُ بأمورٍ ثلاثة، وقعت كلها متتاليةً، لكن بدت لي أنها حدثت سويًا في ذات اللحظة.

في البداية، توهجت شمعتي ثم انطفأت، وكان الشروق قد اقترب، فلم احتج لضوء الشمعة. وهنا لمحتُ شبحا عند رأس السلم. تجمدتُ في مكاني حين وجدتني أمام شبح كوينت للمرة الثالثة! كان الشبح في منتصف طريقه إلى حجرات الأطفال وقد توقف عند النافذة مثبتًا إياي في مكاني كما ثبتني أول مرة رأيته فيها. كان يعرفني تمامًا كما كنت أعرفه.

تبادلنا النظرات الثابتة تحت ضوء الشروق القادم خلال زجاج النافذة، يلقي لمعانا على السلالم. بدا لي لحظتها كمخلوقٍ كريه، لكنني كنت متهيّئة بكل حواسي للقائه.

كنت مضطربة ولم أكن خائفة، حمدًا لله، مما جعلني أنتبه لجرأتي التي فاجأتني شخصيًا، حتى ظننتُ أنني قادرة على معرفة كل شيء عنه، وأدركتُ كم هو شخص بغيض حين لقيته متسللا كالمجرمين في بيت أهله غافين.

t.me/qurssan

أطبق الصمت على حملقتنا الطويلة بعضنا إلى بعض. وكان وضعنا غاية في الغرابة. فلو كنت لقيتُ قاتلا في مثل هذا الوقت لربما تحادثنا أو تحرك أحدنا تجاه الآخر. أو فعلنا ما يبث الحياة لطول وقفتنا تلك.

أكانت هذه الحملقة الصامتة اختبارًا لقوتي؟ ربما. فقد بدأ الشبح في التلاشي مستديرًا عني كأنما يتبع أمرًا غامض المصدر. فقصد نهاية السُلم ثم اختفى في الظلمات.

t.me/qurssan

-10-

ظللت برهةً عند مكاني، لكنني كنت مدركة أن الغريب قد رحل. بعدها توجهتُ إلى حجرتي، وراعني أن أرى فراش فلورا خاليًا!

لم أستطع أن أفيق إلى الحقيقة الماثلة أمامي قبل دقائق. ثم اندفعت إلى الفراش وأدركت أن الستائر ربما كانت تحجب عني خلوَّ الفراش قبل أن أخرج من الحجرة.

كانت الملاءات في فوضى وكذلك الأغطية. كدتُ أفقد عقلي لولا سمعت صوت خطوات دقيقة ولاحظت اهتزاز الستائر المُسدلة على النوافذ.

رأيت الطفلة متوردة الخدين، تقف خلف الستار بريئةً تمامًا في ملابس نومها الخفيفة. قالت لي فأشعرتني بالعجز أمام براءتها:

"أين كنتِ يا شقية؟!"

وجدت نفسي كالمتهمة التي وجب عليها تبرير تصرفاتها. قالت لي أنها كانت مُستلقيةً على فراشها ووجدتني أتسلل خارج الحجرة، فقفزَت من فراشها مختبئةً كي تلعب معي لعبة الاختفاء حين أعود، فقد قالت أنها رأتني مهمومة فأحبت أن تُضحكني.

ربَّتَت على كتفي، وألقت بنفسها بين ذراعاي محتضنةً خصري. فتوهج خداها المحمرين على ضوء الشمعة في يدي.

أغمضتُ عيني مستسلمةً لهذا الشعور الجارف بالراحة. سألتها:

t.me/qurssan

"أكنتِ تبحثين عني خارج النافذة؟ أظننتِ أنني خرجت إلى الحديقة؟"

فأجابت وقد أبيضّ وجهها خوفًا عليَّ بصورةٍ لم أعهدها قبلًا:

"كلا. لكن شخصا أخر كان يمشي بالأسفل.. فبدلًا من أن أختبئ خلف الفراش، رحتُ أنظرُ إلى من كان يمشي في الحديقة حتى وجدتِني."

"وهل رأيتِه جيدا؟!"

"لم أتبين أحدًا."

أجابتني في شيءٍ من الامتعاض العذب الذي تجلى في طريقة نفيها الطفولية. عدت أبحث في نفسي عن مبررٍ لتصرفها أو منطقا خلفه، فوجدت تعليلا دفعني لاحتضانها ونفيهِ عنها. فالطفلة فضوليةٌ، خائفة، مُتعلقةٌ بي. تشبثت هي بي أكثر ولم تظهر عليها علامات خوف.

لماذا لا أصارحها بما يعتمل في نفسي وأُنهي حيرتي؟ أألقي بأفكاري في وجهها الوضَّاء وأقولُ: أنتِ تعلمين ما تفعلين، وتظنين أن أصدقَ ما تقولين. لماذا لا تُصارحيني بحقيقة الأمر حتى نستطيع أن نتصرف ونعرف سر الغموض الذي يحيق بنا ومعنى وجودنا في وسط كل تلك الأحداث؟.

***

لو أنني كنتُ أعرف أن كلامي هذا سيؤثر فيها ويدفعها لمصارحتي لفعلتُ. لكنني لم أستسلم وقررت أن أناورها قائلة وأنا أشير إلى الفراش:

"ولماذا أحكمتِ إسدال الستائر حول الفراش؟ لم أردتِ أن توهميني أنك ما زلتِ نائمة؟!"

t.me/qurssan

تلألأت على شفتيها ابتسامة ملائكية وقالت:

"لم أشأ أن أُخيفك."

"وما ظنك في خروجي متسللة كما تقولين؟"

راحت فلورا تخفي في نفسها حيرة، وأدارت عينيها الزرقاوين إلى الشمعة كأنما لا يعنيها سؤالي في شيء وقالت:

"كنت أعلم أنكِ عاندة، وها قد عدتِ."

ظلت فلورا ممسكة بكفي كي تؤكد لي أن عودتي مهمة جدا بالنسبة لها، ثم عادت إلى الفراش في هدوء، وتركت لي فسحة من الوقت لأفكر.

لك أن تتصور حلكة الليالي التي قضيتها بعد ذلك، ولا السهر الذي لا ينتهي وأنا أترقَّبُ حركة رفيقة حجرتي، وأتحين الوقت الذي تكون فيه نائمة حقا ولا تفتعل النوم، كي أستطيع أن أخرج من الحجرة قاصدة المكان الذي التقيت به كوينت في المرة السابقة، وحين فعلتُ أخيرًا لم أجده هناك، ولعلي أقدِرُ أن أقول أنني لم أره مجددًا داخل المنزل، لكنني وجدت بدلًا منه شيئا آخر.. شخصا آخر..

ألقيتُ نظرةً أعلى الدَّرَج، فلمحتُ امرأةً جالسة على الدرجات الدُّنيا وقد أشاحت بوجهها عني، وأحنت ظهرها مُسندَةً رأسها على كفها في همٍّ وحزن، لم تمض ثوان حتى اختفت دون أن أتبين وجهها، ورغم ذلك كنت قد تخيلته وأنا أسأل نفسي، لو كانت أسفل الدرج بدلا من أعلاه أكانت تطاوعني نفسي على الصعود إليها كما فعلتُ حين خرجتُ لكوينت في الشُّرفة؟

كنت جسورة، لكنني في حاجةٍ ماسة لثباتِ الأعصاب، فبعد أحد عشر يومًا من مُلاقاتي لكوينت آخر مرة، حدث لي حادث مفاجئ أصابني بالصدمة.

t.me/qurssan

كان الأرق قد تملّكني فما استطعتُ النوم، فاستلقيت على فراشي حتى استطعتُ أن أنام ساعة واحدة. استيقظتُ منها في كامل يقظتي وكأن يدًا قد هزتني فأيقظتني.

التفتُ إلى الشمعة التي كنتُ قد تركتها موقدة فإذا هي مُطفأة. ظننت أن فلورا قد أطفأتها، فنظرت نحو فراشها فلم أجدها. هَرُعتُ إلى الستائر فتبين لي الأمر. وأشعلتُ عودَ ثقابٍ، فاكتمل ما كان ينقص من تفاصيل فيما رأيت.

لقد استيقظَت الطفلة فأطفأت الشمعة. ثم وقفت مجددًا خلف الستار ترنو إلى الظلام. لم تُدركَ أنني استيقظتُ. فاستنتجتُ أن ثمة ما يسترعي انتباهها في الحديقة إلى هذا الحد. ارتديت معطفًا واقتربتُ أرى ما تنظر إليه.

كانت تنظر مباشرة إلى الشبح الذي التقيناه عند البحيرة، تنظر في ثبات دون وَجَل أو خوف. كأنما تستطيع التواصل معه. كل ما أردت فعله الآن هو الوصول لنافذة أخرى بعيدَة عن فلورا أستطيع أن أرى منها ذات المشهد. بلغتُ الباب دون أن تلتفتَ لي وخرجتُ وأغلقته خلفي في هدوءٍ، وأصغيت عَلِّي أسمعها تتحرك لكنني لم أسمع شيئًا.

وقفت في الممر أنظر إلى باب أخيها الذي لا يبعد عن مكاني سوى عشر خطوات، وقد أثار هذا الباب في نفسي إغراء غريبًا على فَتحِه. ماذا أجد لو فتحته وخطوت إلى الحجرة ماشيَة حتى نافذتها، مُخاطرَة أن يشعر بي أو يطَّلع على خطتي؟ ماذا سيفعل به حيرتي ومخاوفي لو عرفها؟

لكن الفكرة استولت عليَّ فقصدتُ إلى الباب. هنا توقفت يدي على المقبض. ماذا لو وجدت فراشه خاليًا بينما هو يتخفى أو يراقب شيئًا هو الآخر؟

t.me/qurssan

مرت لحظات من الصمت خارت بعدها قوى اندفاعي وفضولي.

لعل الطفل لا يعرف شيئا والمجازفة رهيبة. لمَ أخاطر بعرض أمرٍ كهذا عليه؟ فانصرفتُ عن الباب.

كانت هناك حجرات خالية في المنزل. ولم يكن عليَّ سوى اختيار حجرة منها تطل على ما تراه فلورا. اخترتُ الحجرة السفلى والتي تطل على البرج وعلى السفح الصخري.

كانت حجرة واسعة فاخرة، وكنت معجبة بها، ودخلتها مرات. لذا كنت أعرف سبيلي فيها الآن. ولم يتوجب علي سوى التغلب على خوفي والوقوف أمام نوافذها.

فتحتُ النافذة في هدوء دون أن يصدر عنها أي صوت. فرأيت القمر يبدد ظُلمة الحديقة. ورأيت على نوره شخصًا صغير الحجم يقف بلا حراك كأنه مُعجب بما يرى، وكان ينظر إلى النافذة التي أطل منها. بعد هنيهة أدركت انه لا ينظر نحوي، بل ينظر إلى الأعلى قليلًا.. ينظر لما أظنُّه شخصا يقف أعلى البرج.

ما أصابني بالذعر هو أنني توقعت أن أرى كوينت بالأسفل. لكنني رأيت آخر من كنت أتصوره.. كان الواقف في الحديقة هو الطفل ميلز نفسه!

t.me/qurssan

-11-

لم أتحدث مع السيدة جروز يومها إلا في وقت متأخر من اليوم. فقد صممتُ على إحكام مراقبتي للطفلين مما جعل انفرادي بالسيدة جروز عسيرًا.

سببًا آخر لصعوبة جلوسي مع السيدة جروز هو اضطراري لإخفاء علاقتي بها خشية أن يلاحظ الطفلان أن ثمة سرا بيننا، أو أن ينتبه الخدم لعلاقةٍ وطيدة لا تَصح بين مربية الأطفال وخادمة منهم.

كنت واثقة أنها تحفظ سري ولولاها ما طِقتُ ذلك العبء الملقى على كاهلَي. لكن السيدة جروز كانت وديعة هشة تفتقر إلى الخيال. ورغم ما كنا نتشارك، كانت لا ترى في الطفلين إلا الوداعة والمثالية. وكانت تسريتها الوحيدة تكمن في احتضانهما والتنعم برؤية وجههما، وكنت أنا أشفق عليها من تعكير صَفوها الأمن.

ما رأيته ليلة أمس كان أكبر من قدرتي على التحمل وحدي، فألححتُ عليها في أن تقابلني في الشرفة المشمسة، وكان الصيف يتولى مدبرًا وتزداد في آخر أيامه حلاوة الشمس ودفئها.

جلسنا والطفلان يسيران على مقربة منا، ميلز يطوّق كتفَي أخته بذراعه ويتلو عليها جهرا قصةً مسلية.

بدأت أنا أحكي مغامراتي الخاصة، وراح وجه السيدة جروز الهادئ يتحول إلى ما يشبه الغباء مُجسدًا، فقد كانت تشعر أنها عاجزة عن متابعة ما أقول.

t.me/qurssan

كنت وصلت في حكايتي لها حتى رأيت ميلز في الحديقة، فهرعت إليه أُعيده إلى المنزل، وكلمت للسيدة جروز معلنة أنني قد اخترت أن أواجه الطفل بالتحدي الصريح. فلا فائدة من التظاهر بأنني لا أعرف ما يفعل.

ما أن رآني ميلز خارجة من المنزل حتى أقبل علي، فأخذت بيده دون أن أنبس ببنت شفة، وسرت به في الظلام إلى الدَّرج، فصعد معي ومشينا في مسار كوينت الذي لابد وأنه قد سلكه ليلة رأيته متسللًا، حتى وصلنا إلى مهجعه فدخلنا صامتين.

لماذا الصمت وفيم يفكر الصبي؟ حين أغلقتُ علينا الباب كان مرتبكًا، وشعرت بالنصر وقتها، فقد سبرتُ غور نفسه أخيرا وأجبرته على إبداء رد فعلٍ ما. لكن ما عساي أن أفيدُ من ذلك؟ وأي سرٍ يخفيه الصبي في نفسه؟

كان فراشه مرتبًا وكأنه لم ينم فيه الليلة قط، وضوء القمر ينير الحجرة. تهاويتُ على طرف الفراش تحت تأثير أفكاري، وأنني تحت رحمته يتلاعب بي كيف يشاء، وعليَّ أن أصدقه.

لم أستطع أن أخبر السيدة جروز عن ما شعرت به أثناء جلوسي أمام ميلز، لن تفهم ولن أقدر على إيصال شعوري لها.

أمسكتُ كفيه الصغيرتين إذ وقف أمامي وسألته عن ما كان يفعله في الخارج. ظل على ابتسامته الصافية التي تألقت فيها أسنانه الناصعة فوَمَضَت في الظلام. سألني:

"إن ذكرت لك السبب، هل ستتفهمين؟"

كاد قلبي ينخلع، أتراه سيخبرني الحقيقة فعلا؟ لم أجد كلمات تسعفني فهززت رأسي هزات متلاحقة جليَّة المعنى. قال:

t.me/qurssan

"السبب هو أن أدفعك لفعل ما فعلته."

"لفعل ماذا؟"

"لا بأس أن تظني بي الشر من وقت لآخر."

قالها بمرح وطلاوة لم أنسهما ما حييت، ولن أنس كيف انحنى وقبلني. احتويته بين ذراعاي وأنا أجاهد البكاء. أي تضاربٍ في مشاعري يتسبب فيها هذان الطفلان؟!

ألقيتُ نظرة حول الحجرة وسألته:

"ألم تغير ملابسك لملابس النوم قط؟"

"كلا.. لقد أمضيت الليلة أقرأ."

"ومتى نزلت؟"

"عند منتصف الليل.. أنا شقي أحيانا.. هه؟"

"أفهم بالطبع رغبتك في أن تتسلل أو تكسر القوانين من وقت لآخر. لكن كيف عرفت أنني سأراك؟"

"رتبتُ الأمر مع فلورا. فكان عليها أن تظل مستيقظة تُراقب. وحين ترين أنها تنظر من النافذة ستحاولين معرفة إلى ما تنظر وسترينني.. "

"هذا ما حدث.. لقد وقعتُ في الشَّرَك."

"هي أثارت قلقك لتشاهدي ما تشاهده. ونجَحَت."

قلتُ في سرعة:

"وأنت عرَّضت نفسك للموت ونزلت في هواء الليل البارد!"

"أنا شقي للغاية كما قلت لك!"

t.me/qurssan

-12-

كنت أعلم أن السيدة جروز لن تكون راضيًة عن حكايتي. حتى وإن كانت حقيقية. لكن ميلز عزز شكي فيه بعبارة ألقاها قبل أن نفترق.

قلتُ للسيدة جروز:

"قبل أن أغادر قال لي (أنتِ تعلمين ماذا يمكن أن أفعل). لقد أذاقهم بعضا من أفاعيله في المدرسة!"

صاحت صديقتي:

"يا إلهي. أنتِ تغيرين فكرتك عنه!"

"أنا لا أغيرها. إنما فقط أفكر! إن الطفلين يلتقيان بالشبحين. ولو أنكِ كنت تلازمين الطفلين كما أفعل في الفترة الأخيرة كنتِ ستتأكدين من ذلك. كلما راقبتهما تيقنت من صدق ظني بهما. بالله كيف لطفلين أن يُطبِقا الصمت على سر كهذا ولا يَزِلَّ أحدهما مرة ويذكر شأن المربية والمُرافق؟! وكيف يخفي ميلز أمر فصله من المدرسة حتى الآن؟ ما خطتهما؟!

أتريدين أن نجلسا هنا ونشاهدهما يتصنعا البراءة. ونبتلع ما يفعلانه في رضا وسعادة؟! حتى وهو يتظاهر بقراءة قصة. فأنا مؤمنة أن ما يفعله ما هو إلا للتغطية على حديثهما عن الشبحين. وإلا لمَ يقرأ بهذا الصوت العالي؟ لابد وأنهما يتحدثان عن أمر رهيب! ستظنين

t.me/qurssan

أنني مجنونة مرتابة، لكني لست كذلك ولو أن ما رأيتَهُ كفيلًا بالإصابة بالجنون!."

كان ما أقوله لصاحبتي يناقض تمامًا ما تراه أمامها، كانا طفلين رائعين يتمشيان في براءة. سألتني:

"وماذا اكتشفتِ غير ذلك؟"

"ما تكشَّف لي أسَرني واستهواني كما حيَّرني وأرهقني.. جمالهما الملائكي وطيبتهما التي فاقت كل حد.. كل هذا زورٌ.. بُهتان.."

"زور وبهتان من طفلين صغيرين؟"

"أما يزالا بالنسبة لكِ صغارا؟! نعم هما ليسا كذلك! حتى وإن بدا ما أقول جنونًا."

أزاح قولي عبئًا هائلًا عن نفسي، فرحتُ وأكملت ثورتي وتخبطي وقلت:

"ليسا طيبين، إنما مُغيبان.. واقعان تحت تأثيرٍ شرير. كان من السهل أن يخدعانا ونحن نُقيم معهما تحت سقف واحد. فهُما –فعليًا - يعيشان في عالمٍ خاصٍ بهما.. هما لا ينتميان إلينا.. الطفلان ينتميان إليه وإليها، إلى كوينت والمربية."

"إلى كوينت والمربية؟ ألهذا يبغي الطفلان لقاءهما؟ لكن لماذا؟"

"حبًا في الشر الذي انطوى عليه الرجل والمرأة، واستجابَة لإغرائهما.. هذا ما يحدو الشبحين إلى العودة."

"لكن هذا ضد قوانين الطبيعة! أيعود الموتى من موتهم؟!"

هكذا همسَت صاحبتي مُتعجبة، لكن كلامها كشف عن اقتناعها ببراهيني. صمتَت برهة ثم قالت وكأنما تذكرَت أمرًا:

t.me/qurssan

"كوينت والآنسة جيسيل كانا مجرمين.. لكنهما ماتا فماذا عساهما فاعلين الآن وهما مجرد شبحين؟"

"ماذا عساهما فاعلين؟"

قلت عبارتي بصوت عالٍ. فتوقف ميلز وفلورا عن سيرهما، والتفتا ناظرين إليَّ. صمتنا. فراح الطفلان يرسلان إلينا قبلات في الهواء وهما يلوحان لنا باسمين. ثم مضيا مستكملين تمثيليتهما.

سألتني السيدة جروز:

"ماذا سيفيدان بظهورهما كشبحين؟!"

"ظهورهما في مقدوره أن يحطم الطفلين!"

نظرت لي السيدة جروز ملتاعة. فأردفتُ كي أخفف عنها:

"بالطبع لا يعرف الرجل والمرأة أن بمقدورهما تحطيم الطفلين. لكنهما يجربان ويجتهدان.. في البداية كانا لا يتجسدان إلا في الأماكن البعيدة.. أعلى البرج، خارج الشرفات، على ضفة البحيرة.. ثم بدأ في الاقتراب تدريجيًا، كأن ثمة اتفاق بين الطرفين على تقليل المسافات واجتياز العوائق. هكذا يصبح اقتراب المجرمين أكثر.. مسألة وقت."

"أيفعلان ذلك كي يقرّبا الطفلين منهما؟"

"وليغوياهما حتى يموتا في سبيل ذلك."

نهضت السيدة جروز مهمومة مُترنّحة، فأضفتُ أنا:

"لكن هذا لن يحدث لو استطعنا منعهما."

ظللتُ جالسة بينما وقفت هي أمامي تقلب الأمر في عقلها، ثم قالت:

t.me/qurssan

"يجب أن يتولى عمهما مهمة المنع تلك. يجب أن يأخذهما لمكان أخر بعيد عن الشبحين."

"ومن يجبره على ذلك، أو حتى يُوصِل إليه حقيقة ما يحدث؟"

كانت ترنو ببصرها بعيدًا. ثم فجأة نظرت إليَّ في بلاهة وقالت:

"أنتِ يا أنسة!"

"هل اكتب إليه أن جو المنزل قد تسمم وأن ابني أخيه أصيبا بالجنون؟"

"مادامت تلك هي الحقيقة."

"أتريدين أن تقولي أنها الحقيقية كما أظنها أنا؟ حسنا.. كيف اكتب له وقد كان شرطه الوحيد لتوظيفي هو ألا أكتب له؟!"

راحت السيدة جروز تتفكر وهي تراقب الطفلين. ثم قالت:

"نعم.. لا يجب أن نكتب إليه بشأن أي أمر يقلقه.. هذه مشكلة.."

"كيف خدعه هذا الشيطان كوينت كل تلك المُدة؟ لقد خدعه هذا واضح، لكن السيد مذنب كذلك بسبب إهماله وعدم اكتراثه لأي شيء."

ما هي إلا لحظاتٍ حتى عادت رفيقتي للجلوس وأمسكت ذراعي قائلة:

"اجعليه يعود بأي طريقة."

"يعود؟"

"يجب أن يكون معنا هنا. يجب أن يُعيننا."

تحمستُ، فنهضتُ مسرعة على هيئة غير التي بدأتُ بها جلستنا. قلت لها:

t.me/qurssan

"أتقترحين أن أطلب منه زيارتنا؟"

"أطلبي منه أن يأتي للكِ."

كانت السيدة جروز تعلم أنني أميل إلى السيد الكبير أيَّ ميلٍ. ولعله أُعجب بجمالي. فلو طلبت منه أن يأتي لزيارتي أنا فربما يتحمس لذلك. لكن هذا وضع مُشين. فأنا رغم ميلي إليه أفخر بكوني استطعت أن ألتزم بعلاقتنا وحدودها المتفق عليها. قلت للسيدة جروز:

"أكون مجنونة لو فعلت ذلك! لو لم يكن ثمة طريق آخر فأنا راحلة عنكِ وعنه."

t.me/qurssan

-13-

كان الاجتماع بالسيدة جروز شيئا لطيفا في حد ذاته، وكنت أعلم صفو نيتها فلم أغضب أبدًا مما آل إليه تفكيرها.

لكن ما أهمني هو التعامل مع الطفلين، والذي صار جهدًا تنوء به قوتي.

وقد بقيتُ على معاناتي شهرًا، بل تفاقمَت المعاناة جراء وعي الطفلين بالمجهود الذي أبذله كي أعاملهما بشكلٍ عادي. ومن نظراتهما الساخرة تأكدتُ أنني لم أكن واهمة، فقد كان جليًا أنهما يعرفان ما أعرفه عنهما.

لم أكن أعني هنا أنهما يقومان بأفعال منافية للذوق لإغاظتي أو السخرية مني، فلم يكن ذلك من ديدَنهما، بل أعني أن بطل علاقتنا كان الغموض والتدبير السري من الطرفين.

لطالما سلكنا طرقاتٍ مظلمة وخرجنا منهما ننظر إلى بعضنا البعض في دهشة مني ولا مبالاة منهما، ولكم سمعنا أبوابًا تُفتح وتغلق ولا أجد منهما رد فعل كأنما لم يسمعا شيئًا. وكانا يُقصران الحديث عموما حتى شعرت أنهما يخشيا أن يتطرق شرح الدروس إلى موضوع عودة الموتى وسيرة صديقي الطفلين المرعبَين.

كنتُ بالفعل أكثِرُ من ذِكري للآنسة المربية التي سبقتني إلى تعليمهما، فكان ينظر كل منهما إلى الآخر ويدور بينهما حوار صامت من نوعية: (أظنها ستفتح موضوع عودتها هذه المرة- لا أظنها ستفعل.)

t.me/qurssan

وكان الطفلان معتادين على سماعهما لقصصٍ من حياتي. فصارا يعرفان أسرتي وقطتي وكلبي ومغامراتهما سويا. بالإضافة إلى معرفتهما بعادات أبي وحكايات النسوة في قريتنا وأثاث منزلنا. كان بيننا كثير من حكايات السمر، وحاولت الاستمرار في اختلاق الحكايات حتى يعتادا الحديث معي، فيَزِلُّ لِسان أحدهما ويحدثني عن الشبحين. لكنهما لم يفعلا.

كان مرور الأيام دون رؤية أيٍ من الشبحين كافٍ لتهدئتي. رغم اضطراب أعصابي وتحفزي لرؤيتهما عند مطلع هذا الدَّرج، أو داخل تلك الحجرة. كم من مُنعطفٍ توقعتُ أن ألقى عنده كوينت، وكم من مكانٍ كان مواتيًا لظهورِ مرعبٍ آخر للآنسة جيسيل. لكن أحدهما لم يظهر.

***

وعاد صيفٌ آخر ومر مفسحًا الطريق للخريف الذي خيم على عزبة بلاي.

صارت العزبة بسمائها الفضية وزهورها الجافة وبقاعها الجرداء أشبه بمسرحٍ بعد انتهاء عرض، والتذاكر ممزقة ومُغضَّنة على الأرض.

كان الجو مماثلا لما رأيت فيه كوينت لآخر مرة. كل شيء كان ينذر باحتمالية ظهوره.. لكنه لم يظهر.

ولم أرتح ولم يهنأ بالي، فما زلت لا أعرف أي سر يخفيه الطفلان عني ولأي سببٍ يخفيانه.

لم نرسل لعم الطفلين خطابات، ولم يُرسل هو لهما. كان قد ترك كل شيء لي – وهي ثقة أسعدتني للغاية- لكن الطفلين في حاجة لعمهما، لمَن يسأل عليهما ويختصهما بالرعاية والمحبة. لقد أفسح العم بغيابه مكانًا لعودة أشباح تسعى وتهتم وتتقرب.

t.me/qurssan

أقنعتُ الطفلين أن يكتبا له، وكنت موقنة أنه لن يرد. كانت خطاباتهما أروع من أن تُرسل بالبريد فاحتفظتُ بها لنفسي، ومازلت أحتفظ بها حتى هذه اللحظة.

هكذا استقرت الأمور بيننا، هما يكتبان وأنا احتفظ بالرسائل. حتى اقتنعت أنه ربما يعود إلينا في أي لحظة. وهو اقتناعٌ مثيرٌ للضحك.

وكان الطفلان وكأنهما يعرفان أن عمهما لا يعلم شيئا مما يحدث، فكان يزداد قلقي، حتى حدث أمر أثار ركود أيامنا..

t.me/qurssan

-14-

كنا في صباح يوم أحد، نسير متجهين نحو الكنيسة. وكان ميلز يسير جواري بينما فلورا تسير مع السيدة جروز على مقربةٍ منا.

كان الجو صحوا ولم نشهد يوما كهذا منذُ فترة، وبرودة الجو المنعشة أضفت على رحلتنا للكنيسة شيئا من الخفة والمرح.

كنت شاكرةً للطفلين على طاعتهما وحسن خلقهما، وما بدا منهما من استمتاع بمرافقتي حتى لو لم أطلب منهما الرِّفقة.

كنت أنتهج في طريقتي لتربيتهم نهجًا يبتعد بي عن مظهر السجَّان المُراقب حابِس الحُريات. كنت أسمح مثلا لميلز أن يتأنق بملابس فاخرة عندما يشاء، تماما مثلما سمحت له اليوم بارتداء أفخر زيٍ لديه، فأنا مؤمنة بحقه في الاختيار، وبحقه في إظهار رجولته وانتمائه لمكانٍ عالٍ في المجتمع. وكان إيمانه هو بتلك الأشياء عميقا وأصيلا.

سألني بلهجة جذابة ونحن نسير:

"أي عزيزتي، متى أعود إلى المدرسة؟"

لم يكن ثمة ما يُريب في تلك الكلمات التي قالها، خاصة وإنها قيلت في مَعرَض الحديث بشكلٍ عفوي، إلا أن ميلز كان يستخدم تلك الطريقة حين يريد أن يتهرَّب من حديثٍ لا يرغب فيه، وكانت طريقة حديثه أشبه بقذف الورود فلا يمكن للمرء أن يغضب بشأنها.

t.me/qurssan

كان ميلز مدركًا أن ثمة شيئا قد اختلف بيننا، لكنه كان حريصًا على أن يَظَل على سابق أدبه وفتنته كأن شيئا لم يحدث.

مر وقت لم أجد فيه جوابًا لسؤاله. وقد أتاح هذا الوقت له أن يفكر ويستأنف كلامه بابتسامة ذات مغزًى غامض، حيث قال:

"تعرفين يا عزيزتي. كون المرء في صحبة سيدة........"

كلمة "عزيزتي" كانت تجري على شفتيه دومًا كلما خاطبني. وكانت كلمة محترمة لا تأمل المربية في سواها من تلاميذها. وتذكرتُ أن عليَّ أيضا أن أحرص في استخدام كلماتي. فلم يكن التعامل مع طفل كهذا هينًا. رأيت على وجهه نظرة تجعلني أدرك كم كنتُ لحظتها غريبَة في عينيه. قلت:

"وهذا المرء في صحبة نفس السيدة دوما؟"

لم يتغير في تعبير وجهه شيء. قال:

"بالتأكيد. فهي سيدة مرحة، لطيفة.. مكتملة الأوصاف.. لكنني صبي.. هل فهمت؟ والصبي يكبر.."

رددتُ عليه برقةٍ ولطف:

"نعم، أنت تكبُر."

"وأنتِ لا تستطيعين أن تُنكري أنني كنت حَسن الخلق للغاية. هل تنكرين؟"

وضعت يدي على كتفه، وأنا مدركة أن من الخير ألا أفعل، لكنني لم أستطع سوى أن أربت على كتفه قائلة:

"لا.. لا أستطيع أن أنكر ذلك يا ميلز."

t.me/qurssan

"لقد كنت حسن الخلق دوما، سوى في تلك الليلة.. الليلة إياها. أتذكرين؟"

"الليلة إياها؟"

ولم أستطع أن أثبت نظري إلى عينيه. قال:

"نعم، حين نزلت من حجرتي وخرجت من المنزل."

"لقد تذكرت.. لكنني نسيت السبب وراء فعلتك تلك."

"هل نسيت؟"

قالها بروح طفل يعاتب في رقة وتسامح، ثم أردف:

"كان السبب هو أن أثبتُ لكِ أنني أستطيع."

"نعم.. وقد استطعت."

"وأستطيع فِعلها مجددا."

قاومتُ أن أصرخ فيه، وقلت:

"لكنك لن تفعلها مجددا."

"لن يتكرر مني مثل هذا الفعل بالذات، فهو لم يكن فعلًا ذا قيمة."

"بالطبع، لكنك لن تعود لفعله."

أخذ ذراعي بيده وقال وهو يسير جواري:

"متى إذن أعود إلى المدرسة؟"

أتخذتُ مظهر أصحاب المسئوليات الكبرى، وقلت وأنا أقلب الأمر في رأسي وأشتري وقتا لأفكر:

"هل كنت سعيدًا في المدرسة؟"

t.me/qurssan

فكر قليلا ثم أجاب:

"ولم لا أكون سعيدًا؟ أنا سعيد في أي مكان!"

قلت بصوت مرتجف:

"حسنا.. طالما أنت سعيد هنا ف...."

قاطعني:

"لكن ليس هذا كل شيء، أنت تعرفين المزيد..."

"أنت أيضا لَمَّحت إلى كونك تعرف ما أعرفه؟"

غامرت بسؤالي فصمَتَ قليلًا، ثم قال بصدق:

"لا أعرف بقدر نصف ما أرجو معرفته! ولا أرى ذلك كافيا لي."

"ماذا تريد إذن؟"

"أريد أن أخبُر الحياة وأعرف أكثر مما أرى هنا."

"فهمت.. فهمت.."

تراءت الكنيسة لنا، ورأنا أُناس مختلفون عما اعتدنا رؤيتهم في العزبة، ومنهم من سكان قرية بلاي، وقد تجمعوا حول الباب في انتظار دخولنا. حثثت خُطاي باغية بلوغ الكنيسة قبل أن يطول بيني وبين ميلز الحديث المُلتف المُوارب.

هرولت تجاه منصة الواعظ، أشتاق للركوع أمامها وسكب همومي أمام إلهي، بدوت وكأنني في سباق مع موقف مُربِك يريد أن يبتلعني، وشعرت أنني أنهزم حين قال ميلز قبل أن أبلغ باب الكنيسة:

"أريد شخصا مثلي! على شاكلتي."

تعثرتُ في سيري وقلت مُتضاحكة:

t.me/qurssan

"لا يوجد الكثير ممن هم على شاكلتك يا ميلز. إذا استثنينا فلورا العزيزة."

"أنتِ تقارنينني بطفلة؟!"

"ألا تعجبك فلورا اللطيفة؟"

"وماذا لو لم تكن تعجبني؟ ماذا لو لم تكن تعجبك؟ ماذا لو لم أكن...... "

ظل يكرر عبارته الأخيرة متحيرًا في طريقة استكمالها. لكنه ترك فكرته مبتورة إذ وصلنا إلى باب الكنيسة.

كانت السيدة جروز وفلورا قد سبقانا دخولا وخلفهما دخل الجميع، فوقفتُ مكاني إذ ضغط ميلز على ذراعي كي أتوقف عن السير. وأحاطت بنا المقابر القديمة.

كنا نقف عند الممر الذي يبدأ من الباب الخارجي. بجانب قبرٍ مُستطيل الشكل كأنه منضدة. قلت لميلز:

"حسن.. إن لم تكن....."

نظر نحو المقابر وأنا بعدُ أنتظر وقال:

"أتعلمين..."

ثم قال شيئا جعلني أهوى مستندة إلى القبر.

"..هل يفكر عمي مثلما تفكرين؟"

اعتدلت وسألته:

"وماذا تعرف أنت عن أفكاري؟"

"لا أعرف شيئا، فأنتِ لا تخبريني أي شيء عنها. لكنني أسأل أهو يعرف؟"

t.me/qurssan

"يعرف ماذا يا ميلز؟"

"يعرف طبائعي."

أدركتُ سريعًا أنه لا قِبَل لي بأن أجيب دون أن أخبره بحقيقة عمه وعدم اكتراثه لأي شيء. لكن السيد الكبير كان قد باعنا جميعا على نحو يجيز لي أن أتكلم كما أشاء.. قلت:

"لا أظن عمك يكترث لأي شيء."

وقف ميلز مكانه وقال ناظرا إلي:

"أيمكننا إجباره على الاكتراث؟"

"وما الوسيلة؟"

"أن يحضر."

"وما يُحمله على الحضور؟"

"أنا."

تألق وجه ميلز وهو يقول عبارته مؤكدا قدرته على فعل ما قال، ثم حدجني بنظرة واثقة واتخذ سبيله إلى داخل الكنيسة.

t.me/qurssan

-15-

لم ألحق بميلز إلى الداخل.

جلست حينًا على شاهد القبر أفكر فيما قاله لي وأتعمق في فحواه. لكن سرعان ما تذكرت أنه وجب علي أن أضرب مثالا للانضباط لتلاميذي وألا أتأخر عن صلواتي.

كان ما خَلُصتُ إليه في اللحظات التي اختلستها وحدي أن ميلز قد حصل مني على كل شيء وعرف أنني وحدي وأني خائفة، وسيستغل خوفي هذا في الحصول لنفسه على المزيد من الحرية لتحقيق أهوانه.

كنت أخشى من الخوض في موضوع طرده من المدرسة، لكن مجيء عمه ليتفاهم معي فيما يحيرني هو حل أتمناه بشدة، لكنني كنت عاجزةً تمام العجز عن مواجهته فاكتفيت بالصبر والتأجيل.

كان فحوى حديث ميلز لي هو: إما أن تسوّي مع عمي مشكلة انقطاعي عن الدراسة، أو لا تنتظري مني بعد اليوم أن أحيا حياة غير طبيعية بالنسبة لصبي في سني.

أما ما بدا لي غريبًا حقًا هو أمر هذا الصبي، فقد تجلى إدراكه وصار قادرًا على بلورةِ خُطةٌ محددة لحياته. كان هذا ما عطلني عن دخول الكنيسة ودفعني للطواف حولها شاردة مترددة، وخطر لي أنني قد أذيت نفسي بحديثي المباشر معه، وأنه لا سبيل لي للتراجع.

ولأول مرة منذ وصلت عزبة بلاي تمنيت الخلاص من ميلز.

t.me/qurssan

وقفت تحت نافذة الكنيسة الشرقية أستمع للصلوات. وتملكتني نزعة كادت تحطمني لو كنت استسلمت لها.. لعلني أنهي كل شيء وأهجر المكان وسكانه. ها هي الفرصة مُهيأةٌ أمامي. وقد خلت الطُرُقات واجتمع الناس في مكان واحد منهمكين في صلواتهم.

أستطيع أن أتخلص من كل همي وأدير ظهري وألوذ بالفرار.

ما كان عليَّ سوى أن أعود للمنزل فأجمع حاجياتي قبل أن يعود الخدم من الكنيسة. كيف يلومني أحد وقد بلغ مني اليأس والحيرة مبلغا؟

علي أن أهرب قبل أن يعودَ الطفلان. فيضحكان في وجهي ويهتفان بنعومة: ماذا فعلتِ أيتها الشقية؟ لقد تركتِنا عند باب الكنيسة وهربتِ!.

لم أكن أستطيع أن أواجه مثل تلك العبارات ولا البسمات المُفتعلة المخيفة. ولا عيونهما الصغيرة الكاذبة. ولم يكن مفر من تلك المواجهة سوى بالهرب.

خرجت مباشرة من فناء الكنيسة. وبمجرد وصولي إلى المنزل كنت قد حَسمتُ أمري على الفرار مهما جلب لي من سخرية ولوم.

كان سكون يوم الأحد يحل على المنزل. ولم ألتق أحدًا من الخدم. فكانت فرصة عظيمة للهرب. علي فقط أن أسرع في جمع حاجياتي وتدبر مواصلة تُبعدني.

كنت في الصالة وقد أقلقتني خواطري وشعرت باليأس. فهويت جالسة على أول درجات السلم. فارتعدتُ حين تذكرت كيف رأيت ذات المشهد في نفس المكان ليلا. تذكرتُ كيف كان شبح المربية مثقلا بالهموم مثله كمثلي.

t.me/qurssan

قُمتُ مُسرعة صاعدةً الدرج إلى أعلى. قاصدةً حجرة الدراسة كي أجمع بعض حاجياتي من هناك. فما أن فتحت الباب حتى هالني ما رأيت..

على المنضدة التي اعتدت أن أدرّس عليها، رأيتُ امرأةً جالسة. لولا أن رأيتها قبلا لكنت ظننتها وصيفة تخلفت عن موعد الصلاة وبقيت تحرس المنزل. وانتهزَت فرصة خُلوهِ لتستخدم أدوات الكتابة والأوراق الخاصة بي لتكتب خطابًا إلى حبيبها.

كانت المُربية الميتة أمامي. والإرهاق بادٍ عليها. مُرتكزة بذراعيها على النُضُد. مُمسكة رأسها بكفيها. برغم دخولي عليها لم تتحرك ولم تغير وضعها. وتبيَّنتُ من هي حين اقتربت منها.

نهضت. ولم يبدُ عليها أنها قد أدركت وجودي. وظلت على كآبتها التي لا تكترث لشيء. كانت حزينة مسربلة بالسواد. ذات جمال شاحب وبؤس سائد. نظرت تجاهي وظلت صامتة. ولو أرادت الحديث لتكلمت وقالت إن لها الحق في الجلوس إلى مكتبي كما منحتُ أنا لنفسي الحق في الجلوس إلى مكتبها. في هذه اللحظة أصابتني رعدة من شعور غريب بأنني أنا الدخيلة ولستُ هي.

كأنما كنت أغالب هذا الشعور حين خاطبتها قائلة:

"أيتها المرأة التعسة المخيفة.."

سمعت لنفسي بأن أصرخ عبارتي وينطلق بها صوتي مترددا في أرجاء المنزل الخالي ليجلجل في الممرات. نظرَت إليَّ وكأنما سمعتني. وفي لحظات اختفت من أمامي ولم يبق أثر إلا لضوء الشمس وإحساس بوجوب بقائي في عزبة بلاي.

t.me/qurssan

-16-

كنت أتوقع أن يعود الجميع من الكنيسة في صخب عظيم، لكن أعاد إليَّ قلقي أني وجدتهم صامتين يلتزمون غاية الصمت بشأن تركي لهم هناك بلا تفسير. وكنت أتوقع تساؤلات أو سخرية أو استنكار.

لاحظتُ أن السيدة جروز أيضا لم تقُل شيئًا. فَرُحتُ أتفحَّص ملامح وجهها وتعبيراته حتى تبيَّنت أن الطفلين قد أوحيا إلى الجميع أن يصمتوا بحيلة أو بأخرى. لكنه صمتٌ أستطيع تحطيمه في أول مناسبة تجمعنا.

وقد حلت هذه المناسبة قبل موعد الشاي. فقد استطعت أن أنفرد بالسيدة جروز لخمس دقائق في حجرة رئاسة الخدم. ومن حولنا كانت تتصاعد رائحة الخُبز في غبشةٍ من الضياء.

كنت قد وجدتها جالسة أمام المدفأة في وضع يشي بالهم. أدركَت دخولي فقالت دون أن أسألها. ودون أن تلفت لي:

"نعم.. لقد طلبا مني ألا أقول شينا. وقد قبلت أن أفعل ذلك في وجودهما كي لا أغضبهما. لكن ماذا دهاك؟!"

"أنا؟ أبدا. أنا فقط تمشيت معكم حتى الكنيسة، ثم كان علي أن أذهب للقاء صديقة."

ظهرت عليها إمارات الدهشة فصاحت:

"صديقة؟! ألكِ أصدقاء هنا لا أعرفهم؟"

t.me/qurssan

قلتُ ضاحكة:

"أجل.. لي صديقان. هل ذكر لكِ الطفلان سببا يبرر طلبهما منكم الصمت؟"

"الصمت عن تركك إيانا؟ نعم.. لقد قالا أنك تُفضِّلين ذلك. أتفضلين ذلك حقا؟"

التفتت إلي مع سؤالها. فقلت في أسى:

"لا.. لا أفضِّله."

ثم أضفتُ بعد هنيهة:

"هل أخبراك عن السبب لتفضيلي ترككم؟"

"لا.. لكن السيد ميلز قال: يجب أن نترك لك حرية فعل ما تحبين."

"حقا؟ وماذا قالت فلورا؟"

"كانت الآنسة فلورا رقيقة ووافقته فورا، وكذلك فعلتُ أنا."

فكرتُ لحظة قبل أن أقول:

"لقد كنتم جميعا في غاية اللطف والتفهُّم. لكن كل شيء بيني وبين ميلز قد انتهى."

حملَقت رفيقتي في وجهي وصاحت:

"كل شيء انتهى؟ لكن لماذا يا آنستي؟!"

"لا يهم.. لقد تخلَّفت عنكم لأعود إلى المنزل وأتحدث مع الآنسة جيسيل.. "

t.me/qurssan

كنت قد اعتدت السيطرة على مشاعر السيدة جروز بكلماتي. وما قلته للتو جعلها تنهار تحت وطء المفاجأة. حاوَلَت التماسُك وقالت مندهشة:

"تتحدثين إليها؟ أتقصدين أنها تكلمت؟"

"أوشكت أن تتكلم. لقد قابلتها في حجرة الدراسة عند عودتي."

"وماذا حدث؟"

"إنها تعاني عذابا.."

فغرت السيدة جروز فاها لقولي وهي تنظر لي. وقالت متلعثمة:

"هل تقصدين تعاني فقدا.....؟"

"تعاني الفقد واللعنات.. لذا تسعى لمشاركتنا فيهما!"

"مشاركتنا فيمن؟!"

"هي تريد فلورا.."

كادت تسقط السيدة جروز أرضا. فأعنتها على الجلوس وأردفتُ:

"كما قلتُ لكِ سلفًا.. لم يعد شيئا يهم."

"هذا لأنك قررتِ.... لكن ماذا قررتِ؟"

"قررتُ أن أراسل عمهما."

"لكم أشفق عليكِ يا آنستي.. لكن. بالله عليك اكتبي له."

كانت تتحدث في ضعف وحيرة. فقلت لها:

"ليس ثمة سبيل سوى مراسلته. لقد انتهت علاقتي بميلز كما أخبرتك. وكان يظن أنه يستطيع لَيَّ ذراعي لمطاوعته. لكنني سأثبت له

t.me/qurssan

أنني لا أخافه، وعلى عمه تولي المسئولية من الآن فصاعدًا. ولا يلومنَّني أحد على عدم استكمال ميلز لدراسته."

"أوافقك تماما.. لكن هل ستُطلِعين السيد على خطاب المدرسة؟"

"كان عليَّ إطلاعه في الحال."

"بالله عليكِ لا تفعلي.. "

"لابد أن أعرض الأمر عليه، فلا يمكنني أن أتولى حل مشكلة طفل طُرِد من مدرسته."

قالت السيدة جروز متحيِّرة:

"لكننا لا نعرف شيئا عن سبب طرده."

"ماذا عساه يكون السبب؟ هو طفل شرير، لا يوجد سبب آخر مهما بدا لنا طيبًا مُحبًا. ربما كان غبيًا أو فوضويًا أو شرسًا.. نحن لا نعرف أي شيء، وتَبيُّن الحقيقة مسئولية عمهما طالما كان هو السبب في وجود أناس ككوينت والآنسة جيسيل معهما دون أن يكترث لحظة لتأثير ذلك."

"هو لم يكن يعرف خطورتهما. الذنب ذنبي."

شحب لونها وهي تُقِر تلك الحقيقة، فقلتُ لها:

"لن يعاقبك.. لا تقلقي."

"والطفلان، ألن يُعاقَبهما؟"

سكتُ برهة ونظرَت كل منا إلى رفيقتها مليًا، ثم قلت:

"إذن ماذا أقول له؟"

"لا تخبرينه.. سأتولى أنا أمر إخباره."

t.me/qurssan

"ستكتبين له؟"

ثم تذكرتُ أنها أميّة لا تكتب، فاعتدلتُ وسألتها:

"وكيف تكتبين له؟"

"أُملي على كاتبٍ وهو يكتب."

كان في سؤالي نبرة سخرية لم أقصدها. لكنها انتبهت فجأة وقالت لي:

"كيف غبتِ عن عقلي! أنتِ تكتبين يا أنستي!."

واتفقنا أن أكتب أنا إليه الليلة. وافترقنا.

t.me/qurssan

-17-

الرياح تعصف بالخارج، وتعصِف بي قراري الذي اعتبرته بدايةً لحل مشاكل عزبة بلاي.

جلست تحت المصباح في حجرتي وجواري فلورا، ومرت فترة وأنا أحدق في الصفحة البيضاء أمامي، يتعالى صخب المطر في أذناي وتمتزج الخيالات في رأسي. في آخر الأمر قمتُ وأخذت الشمعة وخرجت إلى الممر ومنه إلى باب حجرة ميلز. وقفت هناك أضخ السمع، وقد وصل إلى مسامعي ما أظنه صوت تقلُّبه في الفراش. تأكدت مما سمعت حين صاح من الداخل:

"أقول لكِ أدخلي! أنا مستيقظ أمرح في الظلام!"

فتحت الباب، وكان هنالك واقفا فوق الفراش، مَرِحًا مستمتعًا متيقظًا. سألني:

"ماذا تريدين؟"

كان يتحدث بألفةٍ ومحبة، ولو كانت السيدة جروز بيننا ما اقتنعت بأن ما بينه وبيني قد انتهى. اقتربتُ بشمعتي من الفراش وقلت:

"كيف عرفت أنها أنا من تقف خلف الباب؟"

"لقد سمعت خطواتك. أتحسبين أنكِ لا تُحدثين صوتا مميزًا في حركتك؟ أنت تسيرين كفرقة من الفرسان!"

كان يتحدث ضاحكا، ولم أضحك.. قلت له:

t.me/qurssan

"إذن لم تكن نائما."

"ليس تماما.. كنت مستلقي أفكر."

وضعت الشمعة على مقرُبة. فجلس هو على حافة السرير ومد يده الصغيرة إلي. قلت له:

"وفيمَ تفكر؟"

"ماذا عساه يكون غيرك أنتِ."

"أنه لفخر لي أن تُقدَّرني هذا القدر. لكنني أُفضِّل أن تنام."

"وأفكر كذلك – كما لابد وأنك تعلمين- في موضوعنا الغريب."

"أي موضوع غريب؟"

أحسست ببرودة في كفه المُطبقة على كفي في حزم. فأعدتُ سؤالي:

"ما هو الموضوع العجيب يا ميلز؟"

"طريقتك في تربيتي ومعاملتي.. وأمورٍ أخرى كثيرة"

كدتُ أختنق وأنا أرى ابتسامته في ضوء الشمعة الخافت. سألته:

"ماذا تقصد بالأمور الأخرى؟"

"أنت تعلمين.. تعلمين."

لم يكن لدي تفسير لما يقول. واستمر صمتي دقيقة ظل فيها متشبثا بكفي وعينانا في لقاء مستمر. وكأنه يتهمني بتهمة لا أستطيع دفعها. قلت له:

"لا شك أنك عائد إلى المدرسة إن كان هذا ما يقض مضجعك. لكنك لن تعود لمدرستك القديمة، سنجد لك خيرا منها. كيف كنت سأعلم أن هذا الأمر يضايقك طالما لم تحكه لي قط؟"

t.me/qurssan

أحاطت بوجهه القسيم هالة من الضوء. فبدا ساحرا كطفل مريض تحيطه الملائكة. وقد بث هذا المنظر في نفسي رغبة عجيبة في أن أظل جواره، أن أكون الممرضة أو الراهبة التي تسهر على شفائه كنت أريد مساعدته بشدة.

قلت له مردفة:

"أتدرك أنك لم تحدثني قط عن مدرستك؟ لم تُشِر أبدا إليها أو إلى معلميك أو أصدقائك."

بدا عليه العجب. وابتسم ابتسامته المحببة وبدا جليا لي أنه يحاول كسب وقت للتفكير في رد مناسب. أخيرا سأل محاولًا كسب وقت:

"أحقا لم أحكِ لك؟"

كان من المؤلم أن أراه يحاول تمثيل دور البراءة هكذا. أجبته:

"مطلقا يا ميلز.. مطلقا.. لم تذكر لي أي شيء وقع هناك. لك أن تتخيل الظلام الذي أحطتني به منذ التقيتك حتى قلت ما قلته لي هذا الصباح. أنت لن تشير قط إلى أي حدث في حياتك الماضية وكأنك تحاول تقبُّل الحاضر غصبًا دون اقتناع. "

كنت –ويا للعجب- مقتنعة تماما بنضجه المبكر، وبقدرته على أن يعي كل ما أوجهه إليه من كلام الكبار. مما شجعني على معاملته معاملة الند الذكي. أردفت قائلة:

"حتى أنني ظننتك راضيا بحياتك كما هي."

امتقع وجهه وحاول أن يتغلب على ما ظهر من مشاعره لي، فهز رأسه في تعب وقال:

"لا.. لست راضيا.. أريد أن أرحل."

"لست راضيا عن حياتك في بلاي؟"

t.me/qurssan

"بالعكس.. أنا أحب بلاي."

"إذن؟"

"أنت تعلمين ما يشتاق إليه الصبية.. "

تظاهرت أنني لا أعرف، وقلت له مختبئة خلف عبارتي:

"هل تريد أن تذهب إلى عمك؟"

اتكأ على الوسادة وقال ساخرا:

"لن تستطيعي التخلي عن ارتباطك بنا."

"يا عزيزي، أنا لا أريد التخلي عن ارتباطي بكما."

"ولن تستطيعي لو أردتِ.. لن تستطيعي!"

ارتمى على فراشه وقال محدقا في السقف:

"لابد أن يأتي عمي وتسويا الموقف تسوية تامة."

أجبت في مرح، محاولة أن أسرِّي عنه:

"لو جاء واتفقنا، فسنتفق على إبعادك عن هذا المكان."

"وهذا هو ما أريد.. وأريدك أن تخبريه بكل شيء وعن دورك فيما حدث!"

كان يتحدث في أمل، فسألته:

"وما مقدار ما ستحكي أنت له؟ هناك أمور سيسألك عنها وعن دورك فيها."

"غالبا سيسأل.. لكن أي أمور سيسأل عنها؟"

"الأمور التي لم تذكرها لي مطلقا، حتى يستطيع أن يعرف ما سوف يفعله معك، فهو لن يستطيع أن يعيدك إلى مد....."

t.me/qurssan

قاطعني هاتفا:

"لا أريد العودة.. أريد ميدانا جديدا.. أريد حُريةً وأصدقاْء!"

قالها في حزم وجد ممزوجين بالمرح والأمل. لابد وأن تلك النبرة هي ما بعثت في نفسي شعورا بالمأساة التي يعيشها الطفل. كيف سيواجه عمه بخطاب فصله؟ وكيف سيقبل عودته لذات المدرسة وقد كلل العار جبينه؟ سيطر علي شعور بأنني لن أتحمل ذلك، فاحتضنته عطفًا مني.

"عزيزي ميلز.. "

كان وجهانا متقاربين مما أتاح لي أن أقبل جبينه. قال:

"نعم يا سيدتي العزيزة.. "

ابتعد عني برفق وولى وجهه نحو الحائط كطفل سقيم ثم قال:

"لقد أخبرتكِ هذا الصباح.."

"أتريدين ألا أزعجك؟"

التفت إلي مؤمنا على صحة كلامي. ثم أضاف في رقة:

"أريدك أن تتركيني وحدي."

قالها في اعتداد بالنفس وكرامة أثارت إعجابي. فاحترمت رغبته تلك، وقمت متباطئة وقد شعرت أن رحيلي عنه الآن يُعتبر تخليا عنه. أو بالأدق. كنت أشعر أن رحيلي معناه فقدي له للأبد.

قلت له:

"لقد بدأت في الكتابة لعمك."

"أكملي إذن ما بدأتِه."

t.me/qurssan

"ماذا حدث يا ميلز قبل عودتك للمدرسة المرة السابقة؟"

"ماذا حدث؟"

خيل إلي أن كلماته تحمل نبرة مرتجفة، فركعت جوار الفراش وانتهزت الفرصة ثانية. تمالك نفسه قليلا، فسألته:

"لو تعرف فقط يا عزيزي ميلز إلى أي مدى أريد مساعدتك. أني لأفضل الموت على أن أتسبب لك في ألمٍ أو تُمَس من جسدك شعرة. ميلز.. أريدك ان تُعينني على مساعدتك."

ما لبثت أن أدركت أنني قد تجاوزت حدودي وما كان ينبغي لي أن أقول ما قلت. جاء جوابه على تضرعي سريعا بصورة غير طبيعية. شعرت بريح عاتية وبرد شديد وهزة رجت الغرفة رجا.

صرخ الصبي صرخة هزيلة ابتلعها عواء الريح، صرخة لم أعرف أهي صيحة نصر أو صرخة فزع. وقفتُ فإذا الغرفة في ظلام حالك. نظرت حولي فأدركت أن الستائر مسدلة لا تهتز، والنوافذ محكمة الغلق، فصحتُ:

"كيف.. كيف انطفأت الشمعة؟!"

قال ميلز بهدوء:

"أنا من نفختها يا عزيزتي."

t.me/qurssan

-18-

في اليوم التالي، انفردَت بي السيدة جروز بعد انتهاء الدروس، وقالت لي:

"أكتبتِ الخطاب؟"

"أجل. كتبته."

لم أخبرها أنني كتبت الخطاب وأودعته مظروفا مكتوب عليه العنوان، ولا يزال الخطاب في جيبي. فقد رأيت أن هناك وقتا لإرساله.

كان تلميذاي قد استيقظا مشرقَين كما لم أرهما منذ زمن. وبدا أن كلهما يريد الاعتذار عن أي خطأ بدر منها في الأيام الماضية. أظهرا كذلك براعة شديدة في دروسهما، وراحا يتبادلان المعلومات الجغرافية والتاريخية وقد ظهرت براعة ميلز في تلك المواد خاصةً.

يحيا ميلز في بيئة هي خليط من الجمال والشقاء، العذوبة والوحدة. كان طفلا بريئا طَلِقا، وكذلك كان شابا مسئولا ذا حِنكةٍ ومكر.. لذا كان واجب عليَّ التزام الحرص في معاملته، وألّا أطمئن تماما لكونه مجرد طفلٍ بريء. تُرى ماذا اقترف ميلز كي يُفصل من المدرسة؟ ولأي حد وصل دهاؤه وذكاؤه اللذان يفوقان عمره؟

لم يظهر في صورة الرجل دمث الأخلاق من قبل، مثلما ظهر اليوم بعد غدائنا المبكر حين سألني إن كنت أرغب في سماع عزفه لمدة نصف ساعة.

t.me/qurssan

كان عرضه كريما كيّس، وكأنما أراد أن يقول لي من خلاله أن الفرسان الذين نقرأ عنهم وعن خُلُقهم لا يتمادون في التنكيل بمن هزموهم. كان يريدني أن أعرف أنه يفهم ما أفكر فيه بخصوصه جيدًا، وكأنه يطلب مني من خلال دماثة خلُقه أن أتركه وشأنه ولا أقلقه أو أتجسس عليه أو أُبقه بالقرب مني، ليتركني وشأني. كان يريدني أن أترك له الحبل على غاربه. يروح ويجيء كما يشاء.

مضى الوقت وهو يعزف. ولو أنه كان حريًا به أن يمارس رياضة كرة القدم مثلا بدلًا من العزف كالفتيات، لكنه عزف على أية حال، ولا أعرف كم مضى من الوقت حتى اكتشفت أن النوم داهمني وأنا جالسة أستمع إليه، وأشرُد في أفكاري جوار المدفأة في حجرة الدراسة.

كيف نمت؟ وأين فلورا؟ حين سألت ميلز عن كل هذا تباطأ عن الإجابة. ثم قال أخيرا:

"وكَيف لي أن أعلم يا عزيزتي؟ لقد كنت أعزف."

ثم انفجر ضاحكًا في سعادة مرعبة.

هرعتُ إلى حجرتي لكن فلورا لم تكن هناك. بحثت عنها في جميع الغرف فلم أجدها، ورجَّحتُ أنها ربما خرجت مع السيدة جروز فذهبت أبحث عنهما.

كانت السيدة جروز في حجرة رئيسة الخدم كما كانت بالأمس، وكانت جاهلة تماما بإجابة سؤالي عن فلورا. فقد كانت تظن أن الطفلين بصحبتي، وكان لها الحق في هذا الظن. فأنا لا أتركهما أبدا.

دون أن أبدي ذعري، رحت أبحث عنها عند الخدم، وكذا فعلت السيدة جروز. وحين التقينا في الردهة بعد عشر دقائق. كان جليًا أننا لم نجدها في أي مكان.

t.me/qurssan

وقفنا دقائق أخرى نتبادل النظرات الفزعة. قالت لي:

"ستكون في غرفة ما.. هل فتشتِ الغرف جيدا؟"

"بل هي خارج المنزل.. لقد خرجت."

قلت عبارتي في يقين، فتساءلت السيدة جروز:

"خرجت دون قُبعة؟"

كان من الطبيعي أن أعجب أنا أيضا وقلت:

"أليست تلك المرأة – الآنسة جيسيل- بلا قبعة دوما؟"

"أتلمحين أنها برفقة الآنسة جيسيل؟"

"أنا متأكدة.. علينا أن نبحث عنهما."

شددتُ على ذراع رفيقتي، لكن فِعلَتي لم تعد ذات تأثير كما في الماضي. قالت فزعة متوجسة:

"وأين السيد ميلز؟"

"بالطبع مع كوينت في حجرة الدرس!"

"يا للهول!"

كنت متأكدة مما أقول كذلك، فمضيتُ في حديثي:

"لقد نجحوا في تنفيذ مُخططهم. وقد استطاع الصغير الخبيث أن يحفظ هدوئي واسترخائي حتى نمت، كي يتيح لفلورا الخروج. وقد احتاط لنفسه أيضا، لكنني كشفت حيلته."

تجهّمت السيدة جروز يائسة وهاتفت:

"هل تتركينه معه؟"

"مع كوينت؟ نعم.. لا مانع لدي الآن."

t.me/qurssan

كانت قد اعتادت على الإمساك بيدي في ظروف كتلك، لكنها كانت مُرتبكة حتى نَسَت بِمَ تشعر ولا ما يتوجب عليها فعله. سألتني:

"أحدث كل هذا بسبب كتابتك للخطاب؟"

تحسست خطابي في جيبي فأخرجته، وأعطيته للوك الخادم كي يرسله، فوضعه على المنضدة جوار الباب حتى موعد خُروجه. ثم هرعت أنا ورفيقتي بحثا عن الطفلة.

t.me/qurssan

-19-

وصلنا إلى البحيرة - وهي في الواقع مجرد جدول لكنهم في العزبة يسمونها بحيرة- وراعني اتساع واضطراب سطح الماء، ولم اعتدها حتى بعد المرات القليلة التي ركبت فيها القارب مع تلميذاي وأبحرنا خلالها.

كنت على ثقة أن فلورا هناك. فكانت تلك هي الوجهة التي تفضل دوما أن تقصِدها في تمشيَّاتنا. بالإضافة إلى كونه مكانا بعيدًا عن المنزل، وهو عينُ ما قد تحتاج الآنسة جيسيل لخطف الطفلة.

وقفت دقيقة عند الضفة، ثم بدأت في رفع فستاني كي أُجد السير بحثا عنها. تساءلت السيدة جروز في خوف عظيم:

"هل ستدورين حول البحيرة يا آنستي؟ أتظنين أنها قد.... ؟"

"لعلها تكون.. على أيه حال البحيرة ضحلة. لكنني واثقة من أنها هنا. هذا ما رأيته على وجهها يومذاك من تصميمٍ على العودة وحدها كي تلقى المرأة اللعينة."

"أتظنين أن الطفلين يتكلمان عنهما؟ عن الشبحين؟"

"بالتأكيد.. وإلا فلمَ خططا ما خططاه اليوم؟!"

حاولتُ أن أقنع رفيقتي بالذهاب معي، لكنها صاحت في خوف: شكرا!. فمشيت وحدي. وكانت خشيتها عليَّ بادية على وجهها، حتى أنها تَبِعتني في آخر لحظة.

t.me/qurssan

فحصنا الجزء الأكبر من سطح الماء ولم نجد الطفلة في أي مكان حتى عند الضفة الأخرى. لم يكن ثمة شيء هناك سوى شريط من الأحراش الكثيفة المُتهدلة في الماء. نظرنا إلى الأفق الخالي وقد شعرتُ بما يعتمل في ذهن رفيقتي حين لم نجد القارب عند الضفة الأخرى.

قالت السيدة جروز:

"أين القارب إن لم يكن في مكانه على أحدى الضفتين؟ تُراها ركبته وابتعدت به؟"

"إن عدم رؤيتنا للقارب هو دليل على كونها ركبته إلى تلك الضفة ثم أخفته عنا."

"أفعلت كل هذا وحدها؟ يا لها من طفلة!"

"هي ليست وحدها. وفي تلك الأوقات الرهيبة لا يغدو الطفلان طفلين أبدا."

رحت أتفحص الضفة وقد اعتلى السيدة جروز اليأس والهم جراء ما قلت. أخبرتها أن القارب ربما انجرف في الجدول واختفى في منحنى أو نتوء عند الضفاف البعيدة. فسألتني في قلق:

"إذا كان القارب قد انجرف وحده، فأين الفتاة؟!"

"هذا ما علينا معرفته."

رحت أسير بحذاء البحيرة متوجهة إلى امتدادها عبر القرية. سألتني:

"أتمشين كل تلك المسافة؟"

"طبعا. فهي لن تستغرق أكثر من عشر دقائق. وعليَّ أن أسير باحثة عن أي مخبأ ربما تكون فيه."

t.me/qurssan

كانت مسيرتنا وَعِرة مُرهِقة. تخللنا فيها الأحراش. ما أنا قطعنا نصف المسافة حتى توقفت السيدة جروز تلهث، فسندتها شاكرة لها عونها، واستكملنا سيرنا حتى رأينا القارب في المكان الذي توقعتُ وجوده عنده، قُرب القرية، مخفيًا عن الأنظار عمدًا. كان مربوطًا في موضع قريب من الضفة كي يَسهُل ركوبه.. أي جهد قامت به تلك الطفلة؟!

بحثنا حولنا حتى عبرنا سورًا أبصرناها خلفه. صحنا معًا:

"ها هي ذي!"

على مَقرُبة، كانت فلورا واقفة على العشب الأخضر، باسمة كأنما قد أنهت دورًا مهمًا.

انحنيت تخلع بعض الحشائش الجافة، وكأنها قد جاءت لتلعب فقط. انتظرنا دون أن تقترب هي منا خطوة واحدة، فقررنا السير نحوها بهدوء وهي تبتسم وتبتسم كلما اقتربنا.

كان الصمت حولنا ينذر بالشؤم. وكان أول من حطم الصمت هي السيدة جروز، التي ركعت واحتوت الطفلة بين ذراعيها في عناق طويل.

ظللت واقفة ارمق قسمات الطفلة البريئة التي أنظر له من خلف كتف السيدة جروز. لطالما حسدتُ المرأة على علاقتها البسيطة السطحية بالطفلين، والتي تسمح لها دوما بمحبتهما دون تنغيص من أفكار مسمومة.

ألقت الطفلة بالحشائش إلى الأرض، ووقفت أمامي صامتة مُتحدية، وكأنها تعلن أنها تُفضِّل الموت عن الكلام.

أخفضَت بصرها إلى قدمي ثم عادت ورفعته إلى وجهي، وقد تعجبَت من رؤيتي بلا قبعة، وقالت:

t.me/qurssan

"أين قبعتك وبقية زيّ الخروج؟"

أجبت فورا:

"بل أين قبعتك أنت وزيّك؟"

بدا أنها قد قَنَعت بإجابتي فعادت إلى مرحها المعتاد. وسألتني:

"وأين ميلز؟"

كادت جرأتها ووقاحتها تقتلني كمدا. وشعرت أن ما كبتُّهُ من غضبٍ طيلة الأشهر الماضية قد فاض وسوف يغرقنا في طوفان رهيب. قلت لها:

"سأجيبك إن أجبتني.. أين الآنسة جيسيل يا عزيزتي؟"

t.me/qurssan

-20-

كان وقع الحديث علينا كوقع حديث ميلز عند الكنيسة. ولما كان اسم الآنسة جيسيل لم يتردد بيننا – أنا وفلورا- مطلقًا. فقد كانت تأثيره على تعبير وجه الفتاة أشبه بكسر لوح من الزجاج.

شهقت السيدة جروز وهي تنظر إلى نقطة بعينها. التفتُ إلى حيث كانت تنظر. وانفلتت مني صرخة مشابهة وأنا أهتف:

"إنها هناك!"

كانت الآنسة جيسيل واقفة أمامنا عند الضفة الأخرى. وكان شعوري إيذاء ظهورها غريبا. فلم أكن خائفة. بل شعرت بلذة النصر كوني برهنت على صدق استنتاجاتي. المرأة هناك واقفة تؤكد اعتقاداتي.. المرأة هناك وما أنا بقاسيةٍ أو مجنونة..

المرأة هناك من أجل فلورا أولًا وأخيرًا..

لم تمر في حياتي لحظة أغرب من تلك. وقد خُيل إليَّ أن تلك الشيطانة تفهمني وتتفهم دفاعي عن الطفلة. كما أحاول أنا أنِ أتفهم شقاءها.

هزت الآنسة جيسيل رأسها لي. ثم نقلت عيناها للطفلة التي كانت واقفة في هدوء. لا يظهر على ملامحها أي خوف أو قلق. وكانت تشيح بعينها بعيدًا عن تلك الظاهرة العجيبة الماثلة أمامنا وكأنها لا ترى ما نراه.

t.me/qurssan

تعجبت لهدوئها غير العادي، وشعرت بغضب يدفعني إلى الصياح بها:

"إنها هناك أيتها التعسة الصغيرة! هناك! هناك! وأنت تعلمين هذا تمام العلم."

كما قلت للسيدة جروز قَبلًا، في أوقات كهذه لا تغدو فلورا طفلة، وإنما امرأة خبيرة محنكة.

رغم كون السيدة جروز ترى ما أراه، إلا أنها صاحت بي مستنكرة ما أقول للطفلة:

"ماذا دهاكِ بالله يا آنستي؟! ما الذي تحثينها على رؤيته؟!"

كان الشبح الرهيب واقفا أمامنا وهي أول من رآته، فكيف تنكر هي الأخرى؟! أمسكت صاحبتي أدفع بها نحو الشبح وأشير إليه في حنق شديد.

"أما ترينها؟ ها هي واضحة المعالم.. ما عليكِ إلا أن تنظري لها! انظري!"

نظرت وحدقت وأطلقت أصوات نفي واستنكار. لكم آلمني ذلك ولكم تمنيت لو كانت عونًا لي. لقد كنتُ في موقف صعب وقد أصابني تصرفها بصدمة عنيفة.

كانت الآنسة جيسيل اللعينة تنظر إلي مُتحدية، وراح عقلي يدور بحثًا عن رد فعل لكل ما يحدث لي. تقدمت مني السيدة جروز لاهثة وقالت في رفق:

"إنها ليست هنا يا عزيزتي.. لا أحد هنا سوانا، وأنت لا ترين شيئا، فكيف ترين الآنسة جيسيل وقد ماتت ودُفِنت؟ نحن متأكدون من ذلك يا عزيزتي."

t.me/qurssan

ثم وجهت حديثها للطفلة:

"كانت تلك دعابة قاسية منك يا صغيرتي. لنذهب إلى المنزل بأسرع ما نستطيع.. هيا."

أمسكت كل منهما بيد الأخرى كأنهما تتحدياني، وألقت إلي فلورا نظرة كارهة حتى تضرَّعتُ إلى الله أن يَسَعني برحمته، فقد خيل إلي أن فلورا المتمسِّكة بملابس رفيقتي قد خبا جمالها الأخَّاذ، بل اختفى تمامًا، وأصبح وجهها قاسيا دميما مرعبا.

قالت لي:

"لا أعرف عمَّ تتكلمين.. أنا لا أرى أحدًا ولم أر أحدًا مطلقًا.. أنت قاسية للغاية وأنا لا أحبك."

كانت تحدثني بلهجة الدهماء وأطفال الشوارع. قالت ما قالت ثم أسرفت في عِناق السيدة جروز وأخفت وجهها المخيف في ثوبها، وراحت تبكي صارخة بصراخ مخيف كالضواري.

"خذيني بعيدا.. خذيني بعيدا عنها.. بعيدا.."

قلتُ بأنفاس متقطعة:

"بعيدا عني أنا؟"

"عنكِ أنتِ.. أنتِ!"

نظرت إلي السيدة جروز في ألم، فلم أجد بُدًا من أن أعاود النظر إلى الشبح الواقف جامدًا عند الضفة الأخرى، يتصنت على ما نقول.

شعرت أن كلام الطفلة كأنما يُملى عليها من طرفٍ ثالث. قلتُ للطفلة وأنا أكاد أبكي:

t.me/qurssan

"لا شك أنني قد خسرتك.. لقد تدخلت الشيطانة بيننا وأملَت عليكِ ما تقولين.. لقد أردتُ أن أسلك أقرب الطرق لمنعها عن التأثير عليكِ.. لقد بذلت كل ما في وسعي... لكنني خسرتك. فوداعا يا فلورا.."

ثم أمرت السيدة جروز في حدة:

"اذهبي.. اذهبي!"

كانت السيدة في بؤس بالغ، مبهورة بما تعانيه الطفلة وتقوله. وأدركت هي أن ما بيني وبين فلورا قد ضاع للأبد. فعادت بها إلى المنزل مُسرعة الخُطى.

لا أذكر ماذا حدث بعد أن بقيتَ وحيدة.. لكن بعد فترة أدركت أنني مُلقاة على الأرض أبكي وأصرخ. وحين رفعتُ رأسي أبصرتُ النهار موشكا على الانتهاء. نظرت حولي فلم أرَ أحدا. فلملمتُ شتات نفسي وسرت في مشقة إلى السور. ولعجبي لم أجد القارب مكانه. لقد أخذته فلورا مجددًا وأبحرت به عائدة مع السيدة جروز.

حين وصلت المنزل لم أرَ أيا منهما. ولم أقض ليلة أكثر شؤما من تلك التي قضيت.

لم أبحث عن الصبي عندما وصلت المنزل. فقط توجهت إلى غرفتي لأغير ملابسي وأستكشف حدود قطع فلورا علاقتها بالعزبة. فقد اختفت جميع مقتنياتها. ولم أشأ أن أسأل الخادم الذي جاءني بالشاي عن شيء من أمرها.

لقد نال ميلز حريةً كاملة الآن وسيحظى بها للنهاية. أخذت شايي وسحبت كرسي المكتب إلى جوار النافذة وأطفأت شمعتي. كنت أحس ببرد مميت ظننت أنني لن أشعر بعده بدفء أبدًا.

t.me/qurssan

جوار المدفأة جلست أفكر. وعلى ضوء لهيبها رأيته -ميلز- واقفا عند الباب يحملق بي. ثم وكأنما يريد مشاركتي أفكاري، جلس على الكرسي الوثير صامتا.

شعرت أنه فقط يريد مرافقتي.

t.me/qurssan

-21-

قبل أن يبدأ صباحي التالي، فاجأتني السيدة جروز في حجرتي بخبر شنيع. فلورا مضطربة للغاية وقد قضت ليلتها في ذعر مبين لا يبثه في روحها شبح مربيتها القديمة، بل شبحي أنا! فهي لم تكن تخشى ظهور الآنسة جيسيل، بل كانت تأبى أن تراني.

قفزت من سريري تعصف بي الأفكار. سألت السيدة جروز عن مدى غضب فلورا مني، وعن عمق العداوة التي تُكِنها لي. قالت:

"هي فقط مُصرة على أن تنفي لكِ أنها رأت شيئًا أمس، أو سبق وأن رأت شينا مسبقا."

كدت أرى شبح الآنسة جيسيل بوضوح عند البحيرة كما أرى السيدة جروز الآن، لكن كرامة الطفلة تأبى أن تعترف بشيء كهذا. أعرف أن السيدة جروز أنكرت رؤيتها لشيء شفقةً بالطفلة، كي لا تشعر أننا جميعا ضدها، لكن أيعني هذا أن الآنسة جيسيل قد أحكمت قبضتها على الطفلة وعلينا؟

قلت للسيدة جروز:

"أعتقد أن هذا تأثير الآنسة جيسيل عليها."

"بل هي كرامتها، كل ما تعانيه الآن هو ألم كبريائها الجريح، إنها تسألني كل ثلاث دقائق إن كنتِ آتية أم لا."

t.me/qurssan

"هل ذكرت لك أمس شيئا عن الآنسة جيسيل سوى في سياق ما حدث عند البحيرة أمامنا؟"

"ولا كلمة واحدة يا آنستي.. حتى أنني صدقتها.. هي لم تر شيئا حينها هناك."

"أحقا؟ تُصدقين أنها لم تر؟!"

"كيف لي أن أعارضها؟ لا تسمح لي مكانتي بذلك أبدًا."

"لديك حق.. فأنت تتعاملين مع أخبث طفلة. لقد صار الطفلان بفضل صديقيهما اللعينين أخبث من أي طبيعة طفولية لديهما. على قدر ما كانا طفلين نقيين رائعين بارعين، على قدر ما أُتيح للعينين أن يستغلا كل تلك المهارات لزرع الفساد فيهما. الآن وجدت فلورا سببا لشكواها وستشكو للنهاية."

"للنهاية؟"

"للنهاية التي توقع بيني وبين عمها.. ستوصل إليه أنني مخلوقة بشعة."

انقبض قلبي وأنا أنظر إلى رد فعل السيدة جروز على كلماتي، حتى كأنني رأيت أربعتهم مجتمعين في عينيها. قالت:

"..وهو الذي يحسن بك الظن إلى هذا الحد.."

"له طرق غريبة سيدي في إثبات حسن ظنه. فقد ترك كل شيء لي دون أن يعرفني جيدا، كما ترك كل شيء من قبل للعينين. كل هذا لا يهم.. كل ما تريده فلورا الآن هو الخلاص مني."

قالت رفيقتي في شجاعة:

"هي لن تطيق رؤيتك مجددا."

t.me/qurssan

"وأنتِ إذن جئتِ لاستعجال رحيلي؟"

قبل أن تجيب، قاطعتها:

"لدي فكرة اهتديت إليها بعد طول تفكير وكنت على وشك تنفيذها يوم السبت. عليكِ أنت يا سيدة جروز أن ترحلي وتأخذي فلورا معكِ."

تفكرَت صاحبتي حينًا، ثم قالت:

"وإلى أين؟ إلى أي مكان؟"

"إلى أبعد مكان.. بعيدا عن كوينت والآنسة جيسيل.. بل بعيدا عني أنا.. عليك بالذهاب بها إلى عمها."

"أذهب لأشكو إليه؟"

"ولتتركاني كذلك أتفرغ لخطتي."

"وما هي خطتك؟"

"أولا أريد ولاءك وولاء ميلز."

تساءلت السيدة جروز:

"هل تظنين أنه قد...؟"

"ما زلت متيقنة أنه لن ينقلب عليَّ حتى وإن واتته الفرصة. على أيه حال أريد المحاولة. فلا حل آخر أمامي. خذي أخته بعيدا عن هنا بسرعة واتركيني أنفرد به."

تعجبت أن في نفسي شجاعة باقية بعد كل ما حدث. وحين أبدَت ترددها. باغتها بحزم مُستطردة:

"لكن الأهم ألا يختلي الطفلان ببعضهما حتى ترحلي أنت وفلورا."

ثم خطر لي خاطر سخيف فسألتها:

t.me/qurssan

"أم أنهما التقيا بعد عودتها من البحيرة؟!"

احمر وجهها وقالت:

"لست غافلة إلى هذا الحد. ففي كل مرة اضطر لتركها، كنت أعهد إلى خادمة بمرافقتها. وما تركتها إلا ثلاث أو أربع مرات. والآن رغم أنها وحدها، فالباب موصد بالمفتاح.. لكن... لكن ما وقع من أحداث فوق خيال أي شخص ولا أزعم أنني متأكدة من أي شيء."

"ماذا تعنين؟"

"أعني.. أواثقة من ولاء السيد ميلز إلى هذا الحد؟"

"لا أثق بأحد سواكِ. لكن أملًا بزغ فيّ منذ ليلة أمس، حين جاءني وجلس صامتا بقربي وكأنما يريد أن يتكلم.. ساعتين أمضاهما أرسيا في هذه الثقة."

"وهل تكلم؟"

"لا.. لم يتكلم أو يشير حتى إلى أمر أخته أو غيابها. لكنني بعد لا أرى أنه من الصواب أن يتقابلا خاصة وقد آلت الأمور إلى هذا السوء. أريد منحه بعض الوقت.. "

كنت أشعر أن رفيقتي تمتنع عن الانقياد في موافقتي على كل ما أقول، فتساءلت:

"ماذا تعنين ببعض الوقت؟"

"يوم أو يومان حتى أستطيع دفعه للكلام. لو تكلم ساكسبه في صفي وهذا مهم كما ترين."

"وإن لم يتحدث؟"

t.me/qurssan

"فليس أمامي سوى الاعتراف بالفشل. وتكونين أنتِ قد عاونتني بما تستطيعين عند بلوغك لندن."

لبثت حينًا تفكر في كل ما قلت. فقلت لها:

"طبعا لو لم تكوني راغبة في الذهاب. فأنا أتفهم هذا جيدا."

سرعان ما مدت إليَّ يدها كأنما تقطع عهدا وهتفت:

"سأذهب.. سأذهب.. بل إنني ذاهبةٌ اليوم."

"أقول لكِ مجددًا. لو لم تريدي الذهاب سأضمن لك ألا تراني الطفلة. ولن أزعجها."

"لا.. يتوجب عليها ترك هذا المكان برمته يا آنستي... وأنا أيضا لن أستطيع البقاء.. فقد.... "

ترددَت قليلا فسألتها:

"خائفة مما رأيته عند البحيرة؟"

"ليس هذا فقط. وإنما من كلام الطفلة.. إنها.. إنها تقول كلامًا....."

هنا خارت قواها وأجهشت بالبكاء تاركة العنان لكل تلك المشاعر التي كبَتَتها طويلا. أما أنا فقد فرَّجت عن همي بطريقتي قائلة:

"حمدًا لله.. "

تعجبَت متسائلة من خلف دموعها:

"حمدا لله على ماذا؟"

"لأن فيما تقولين ما يؤكد صدق استنتاجاتي ويدعم ضرورة تَصَرُّفي.. أهو مخيف ما قالت؟"

"مخيفا للغاية.. "

t.me/qurssan

"وهل قالت شيئا فيما يتعلق بي؟"

"أنا أصر أن تعرفي يا آنستي أنه.. أنه أمر فوق تحمل الطفل.. فوق قدرتها على الاستيعاب. لا أستطيع تصور مصدر الكلمات الرهيبة التي تحدثت بها عنك.. لابد وأنها كلمات مدسوسة على عقلها."

ضحكتُ مُهوِّنةً عليها وقلت:

"أستطيع أن أتخيل.. ماذا قالت؟"

استدارت المرأة المسكينة خارجة من الحجرة وقالت:

"علي أن أعود للآنسة فلورا."

استبقيتها قائلة:

"كيف تتحملين البقاء معها؟"

"علي أن أتحمل حتى أبعدها عن هنا.. عنهما.. لأجل هذا سأمكث معها."

سررتُ فعلا أننا ما زلنا متكاتفتين، فلم أعد أعبأ كثيرا بما سيحدث مادامت رفيقتي ستظل على عهدها ومادمت قد نلت ثقتها إلى هذا الحد.

قبل أن تخرج قلت لها:

"لابد أن أذكرك بشيء. إن خطابي الذي أرسله عني الخادم سيكون نذيرا يسبقك إلى لندن."

قالت في تردد:

"لن يكون قد وصل.. بل إنه لم يُرسل من الأساس."

"ماذا تعنين؟! ماذا حدث للخطاب."

t.me/qurssan

"لا أعرف ماذا حدث له. لكن السيد ميلز..."

"أخذ الخطاب؟!"

ارتبكت حينًا، لكنها تغلبت على ارتباكها وقالت:

"أعني أن لوك الخادم قد وضعه على المنضدة حتى موعد خروجه لإرساله، وحين عدتُ أنا وفلورا أمس لم نجده حيث وضعه. وفي المساء حين أتيح لي أن أسأل لوك عنه، قال إنه لم يجده حيث وضعه وظن أنك أخذتيه."

"فهمت. على الأرجح مزقه ميلز بعد أن قرأ ما فيه."

"وهل فهمت شيئا آخر؟"

"أستطيع الآن أن أخمن ما فعله في المدرسة.."

قالت السيدة جروز في حزن كأنما تكمل استنتاجي:

"أجل.. لقد سرق.."

"ربما.."

أضافت مؤكدة كلامها:

"لقد كان يسرق الخطابات."

لا أعرف مصدر الهدوء الذي انتابني، وتجلى لي أنها إنسانة بسيطة سطحية التفكير حقا. قلت لها:

"لو كان يسرق الخطابات من المدرسة، فربما كان يفيد بها أكثر مما قد يفيد بخطابي، فلم أكتب فيه سوى طلب لمقابلة السيد. وأعتقد أنه لن يفعل هذا الفعل المُهين دون أن يستفيد منه شيئا. لقد كان ما يدور بعقله أمس هو الاعتراف ولا شيء آخر.. عموما اتركينا، سأفهم منه كل شيء وسيعترف.. وإن اعترف فقد نجا.. وإذا نجا...؟"

t.me/qurssan

"نجوتِ أنت أيضا."

قبّلتني السيدة الطيبة مودعة. وقبل أن تخرج قالت:

"سأنقذك يا أنستي دون الحاجة إليه."

وانصرفت مبتعدة.

t.me/qurssan

-22-

لم تواجهني المتاعب الحقة إلا بعد رحيلها!

كنت قد عقدت الآمال على ما سأحصل عليه بانفرادي بميلز. لكن اتضح لي أن انفرادنا عقابا لي!

لم يُصبني رعب قدر ما أصابني حين أدركت أن العربة التي تُقل السيدة جروز وفورا قد غادرت العزبة، ووجدت نفسي وحيدة تماما أمام قوى خفية. وانفرد بي ضعفي طيلة اليوم، نتصارع فيصرعني حينا وأصرعه حينا حتى أنني شككت في قراري وخطتي. زاد شعوري هذا كلما تفحصت أوجه الخدم تُفصِح عن تساؤلات عن حقيقة الوضع وعن دوري المشؤوم فيه، وعن سبب مغادرة السيدة جروز وفلورا على هذا الوجه من السرعة. لم يكن أمامي سوى أن أصمد وأتصنّع الكبرياء والجفاء.

علم الجميع أنني السيدة هنا، وأن انفرادي بإدارة البيت يجبرهم على احترامي والانصياع لأوامري. وبهذه الروح مشيت في أرجاء البيت أعرض شجاعتي عليهم حتى حلّ موعد العشاء.

استنتج الخدم من برود العلاقة بيني وبين ميلز أنني غاضبة منه لما فعله أمس حين خدعني بعزفه ليتيح للطفلة الخروج. وكان الموقف جليا للجميع وأثبته رحيل فلورا إلى عمها. لم يتناول ميلز العشاء معي ولم يحضر دروسه، وكان آخر وجبة تناولها هي وجبة الإفطار مع السيدة جروز وأخته قبل رحيلهما.

t.me/qurssan

كان وجودي في المنزل الآن لا علاقة له بوظيفتي كمعلمة لميلز. فأعفاني هو من دوري حرصا على كرامتي، وقد تمتع بكامل حريته كما كان يبغي دوما.

لكنني وضعت خطتي نصب عيناي، وأمرت الخدم أن كل الوجبات التالية لي ستكون برفقة ميلز في الطابق السفلي.

هكذا رحتُ انتظره في حجرة الطعام الفاخرة. الذي طالعني فيها وجه كوينت المربع في يوم الأحد إياه. وهنا أدركت أن صلابتي وشجاعتي تستند بالكامل على إرادتي. فقد صمَّمت أن أطرد أي خيال قد يُعيد مرأى الشبح إلى عيناي. ما عليَّ مواجهته هو شيء خارج عن الطبيعة. وعليَّ أن أحتمي بالطبيعة نفسها وبقوانينها.

مهما حاولت التفكير في صلة عالم غير محسوس بعالمنا. وما قد يريده ساكنو العالمين من بعضهما. يدور عقلي ولا أصل إلى أي هُدى.

ميلز، هذا الطفل الذكي.. جزء من الطبيعة التي أحتمي بها. وذكاؤه هو حمايتنا، فإن لم يستطع ذكاؤه المُطلق إنقاذه فما جدوى هذا الذكاء؟

كان ميلز واقفا أمام شريحة اللحم الموضوعة في طبقه، ويداه في جيبيه محدقا فيها. فجأة سألني:

"أهي حقا مُصابة بمرض خطير؟"

"من تعني؟ فلورا؟ ليس بالغ الخطر وستتحسن سريعا في لندن. لم تعد عزبة بلاي تلائمها. هيا أجلس وكُل."

أطاعني فورا وقرب الطبق من مقعده وجلس، ثم أردف:

"أصارت عزبة بلاي فجأة مكانا غير مناسب لها. بلا سابق إنذار؟!"

"كانت ثمة نُذُر وكانت حالتها تسوء يومًا عن يوم."

t.me/qurssan

"إذن لماذا لم تُبعدها قبل ذلك؟"

"قبل ماذا؟"

"قبل أن تسوء حالتها."

"لم تسأ إلى هذه الدرجة. وكانت لتسوء لو بقيَت هنا أكثر. سوف تبدد رحلتها أثر بلاي السيئ عليها."

"نعم.. فهمت."

أقبل على طعامه مُراعيًا أدق أصول المائدة. فمهما تكن أسباب طرده من المدرسة، فلم يكن إخلاله بآداب المائدة سببا منها. لكنه اليوم كان أكثر وعيًا وقدرة على استيعاب الأمور.

بعد ما أزيلت بقايا الطعام وأدوات المائدة، عاد ميلز للوقوف ودس كفيه في جيبيه موليا ظهره للباب ناظرًا عبر النافذة.

قال أخيرا:

"إذن نحن بمفردنا؟"

t.me/qurssan

-23-

قلت له بابتسامة باهتة:

"إلى حد ما.. بمفردنا. لكن ليس تماما بالطبع فلا ينبغي أن نكون كذلك."

"أظن أنه لا ينبغي لنا ذلك. معنا آخرون طبعا."

رددتُ قوله:

"معنا أخرون... أجل، معنا آخرون."

أكمل كلامه وما زالت يداه في جيبي بنطاله:

"لكن.. مع أنهم معنا، فوجودهم لا يهم كثيرا.. أليس كذلك؟"

حاولت جاهدة أن أفهم ما يعنيه، لكنني فشلت، وتَبدَّى شحوب وجهي جليا.

قلت له:

"هذا يتوقف على ما تعنيه من قولك، وعلى من تعنيهم."

"نعم.. فكل شيء يتوقف على شيء."

بعد ما قال عبارته، نظر نحو النافذة ثانية، ثم سار نحوها مضطرب الخُطى، وألصق جبهته بالزجاج مُحملقا في الشجيرات القصيرة الباهتة خارجه.

t.me/qurssan

حاولت أن أتشاغل عنه كما اعتدت أن أتشاغل عما يفعله الطفلان وما يفكرا فيه من أهوال. وجلست على الأرِيكة مُرغِمة نفسي على تَقبُّل أسوأ الاحتمالات. لكن منظر ميلز ووقفته أوحيا إليَّ أنه محبوس مُبعد خلف النافذة الكبيرة. ولم يُشعرني هذا الانطباع براحةٍ أبدًا.

أتراه ينظر عبر النافذة عَرَضًا، أم ينتظر رؤية شيء؟

أخيرا التفت لي وقال:

"يسرني أن عزبة بلاي تلائمني."

"يُخيل إليَّ إنك شاهدت خلال اليوم الفائت منها أكثر مما شاهدت خلال سنوات حياتك. أرجو أن ما رأيته قد أعجبك."

"طبعا.. فلم يكن مسموحا لي بالتجوال بعيدا عن المنزل إلى هذه الدرجة من قبل. بالفعل شعرت اليوم أنني حر."

"هل تحب المكان إذن؟"

"أتحبينه أنت؟!"

شعرت بقدر من الاتهام في سؤاله. لكن قبل أن أفكر في إجابة أردف هو كأنما يخفف من وقع سؤاله علي:

"نحن الآن وحيدان، وأنت تعانين من وجودك في العزبة أكثر مني. لكنني أتمنى ألا تؤلمك تلك المعاناة.. أنا فعلا مُعجب بالطريقة التي تسلكين بها سُبُل حياتك."

"أنا سعيدة بصحبتك يا عزيزي. فهل ترى سببا آخر يحملني على البقاء هنا سواك؟"

عبس وجهه ونظر لي في جدية. فأكسبه هذا جمال فوق جمال. سألني:

t.me/qurssan

"وهل بقاؤك لهذا السبب فقط؟"

"بالتأكيد. أنا أقيم هنا كصديقة لك. بالإضافة إلى شغفي بك فأنا أنتظر أن تتح لي فرصة لتقديم ما هو أكثر من رعايتك ومحبتك. فهل ثمة فرصة؟"

لم أستطع أن أخفي الرجفة التي انتابت صوتي وأنا أردف:

"هل تذكر ليلة العاصفة؟ حين أخبرتك أنني على استعداد للتضحية بنفسي في سبيلك؟"

استطاع ببراعة أن يتحكم في صوته وأجابني بضحكة حازمة مُضيفا:

"نعم.. أعرف أن كل هذا كان في سبيل أن تدفعيني لفعل شيء من أجلك."

"هو كذلك.. لكنك لم تفعل ما كنت أريده منك."

قال سريعا:

"كنتِ تريديني أنا أخبرك بشيء."

"هذا حق.. قل ما عندك إذن."

"هذا هو سبب بقائك هنا.. "

كان يتحدث بمرح لم يخلُ من طيف من الكراهية والسخرية. مع ذلك تماسكت كي لا يبدو عليَّ أي تأثرٍ بألاعيبه. أردف:

"قد أفضي لك بما أُخفي.. فهذا هو مقصدي أيضا على أية حال."

صمت طويلا بعدها وكأنه يحاول أن يؤلف كذبة. ثم قال:

"هل أحبكِ الآن؟ هنا؟"

"ليس ثمة مكان أو زمان أصلح من هنا والآن."

t.me/qurssan

ظل يتلفت حوله كأنه يستشعر اقتراب خطر ما. خطر ببالي أن أستغل خوفه لإجباره على الحديث. لكن في نهاية الأمر شعرت بشفقة عليه فسألته:

"هل تريد مغادرة حجرة الطعام؟"

"أريد ذلك.. جدا."

زاد ارتباكه وهو يبحث عن قبعته، حتى وجدها واعتمرها. أخيرا قال:

"سأخبرك كل شيء، كل ما تريدين معرفته.. سنمكث سويا وسنكون بخير وسأخبرك كل شيء. لكن ليس الآن."

"ولمَ؟"

سار في تؤدة شاردا إلى النافذة مرة أخرى. ثم استدار لي فجأة هاتفا:

"لابد لي أن أقابل لوك."

كنت أعلم أن من رآه خارج النافذة لم يكن لوك الخادم. لكنني جاريته في كذبته البلهاء وقلت:

"اذهب إلى لوك إذن، وسأنتظرك أن تفي بوعدك. لكنني أرجوك قبل خروجك أن تُجِب لي طلبا صغيرا للغاية."

بدا عليه شعورا بالانتصار ظنا منه أنه قادر على بعض المساومة. قال لي:

"صغيرا جدا؟"

"للغاية.. قُل لي.. أأخذت الخطاب الذي تركته أنا على المنضدة جوار الباب؟"

***

t.me/qurssan

-24-

انشطرت نفسي فزعا حين أبصرت من خلفه وجه بيتر كوينت الشاحب، ملتصقا بالنافذة وتعبير من الغضب يعتليه. جذبت الصبي سريعا نحوي وحاولت أن أحميه من رؤية ما رأيت من هول. ألقيت به وبنفسي على الأريكة، لكن ميلز كان قد استنتج سر فعلتي تلك. إلا أنني كنت أُمثل أنني أجذبه نحوي حنانا مني وحثّا على التواصل معي، لا خوف من شيء أو محاولة لحمايته.

كنت أرتجف وأنا أحملق في الوجه اللعين خلف النافذة، وأحتضن الصبي أكثر كأنني أذود الشيطان عن روح البشر جميعا.

نظرت لميلز، وكان العرق يتفصَّد من جبينه وقد شحب وجهه قدر شحوب وجه الشيطان بالخارج. قال ميلز بصوت واضح:

"نعم، أنا أخذت الخطاب."

ضممته إلى صدري، وشعرت برجفته ودقات قلبه الصغير تتردد في جسدي. ظل بصري معلقا بالشيء خلف النافذة فرأيته يتحرك مغيرا وجهته، كسجَّان يطوف حول زنزانة. كان يتسلل تسلُّل الوحوش نحو باب المنزل، وواتتني شجاعة أن أتحرك نحو الباب فأمنعه من الدخول، لكنه توقف وألصق وجهه بالنافذة الأخرى يراقب وينتظر.

ربما لا تواتني فرصة أخرى للحديث مع ميلز، ربما..

سألته وأنا أجاهد كي يبدو حديثي معه عاديا عفويا:

t.me/qurssan

"ولماذا أخذت الخطاب؟"

"لأعرف ما كتبتِه عني."

"وهل فتحته؟"

"نعم."

كان الطفل مُدركا أنه في حضرة الشبح، وحاولت أن أحجب عنه أي تأثير لكوينت عليه. نظرت مجددا للنافذة فرأيت الجو بصفو مما كدَّره بتواجد اللعين كوينت. شعرت بالانتصار ،وبأنني قد أبعدته. ولي الحق الكامل في معرفة كل شيء. سألت ميلز:

"الم تر شيئا؟"

أومأ برأسه إيماءة حزينة موجعة وقال:

"لم أر شيئا."

"مُطلقا؟"

كرر كلمتي في حزن:

"مُطلقا."

قبّلت جبينه الغارق في العرق وسألته:

"ماذا فعلت إذا بالخطاب؟"

"أحرقته."

هنا تحيَّنت الفرصة التي قد لا تعود لسؤاله عن المدرسة، فسألت:

"أحرقته؟ أهذا ما كنت تفعل في المدرسة؟"

تساءل في حيرة:

"في المدرسة؟"

t.me/qurssan

"هل كنت تسرق الخطابات أو غيرها من الأشياء هناك؟"

"غيرها من الأشياء؟ أتعنين أنني لص؟"

شعرت بالخجل من كوني أواجه طفلا كهذا بتهمة شنعاء. لكن عليَ الاستمرار في استجوابي.

"لهذا لا تستطيع العودة إلى المدرسة؟"

علا وجهه دهشة خالية من الصدق وتساءل:

"أتعرفين أنني لا أستطيع العودة؟"

"أعرف كل شيء."

أطال النظر إلى وجهي وسأل مرة أخرى:

"كل شيء؟"

"كل شيء.. إذن أنت كنت...؟"

عجزتُ أن أكرر اتهامي بالسرقة. لكنه أعفاني من الحرج وقال:

"لا. لم أسرق."

ظهر على وجهي أني أصدق تماما. وهززت كفيه بين كفاي وكأنني ألومه على الحُكم عليَّ طيلة هذه الأشهر بالحيرة طالما لم يحدث شيء مشين في المدرسة.

"إذن ماذا فعلت؟"

رفع عيناه بألم إلى سقف الحجرة. وتنفس بصعوبة واضطراب. ثم قال أخيرا:

"كنت أقول أشياء.. أبوح بأشياء تحزنني.. "

"فقط؟"

t.me/qurssan

"هم اعتبروا هذا سببا كافيا."

"كافيا لفصلك؟"

لم أرَ شخصا مفصولا لا يبدو عليه أي سبب لفصله أكثر من ميلز البريء. قال في حيرة:

"لعلي كنت مخطئا في البوح من الأساس."

"ولمن قُلت ما قُلت؟"

كان جليا لي أنه يحاول أن يتذكر جاهدا. لكنه ذاكرته خانته فقال:

"لست أدري. كنت أتحدث بصدق وتلقائية مع عدد من الأشخاص الذين أحببتهم"

يحكي لمن أحبَّهم؟ كانت إجاباته تدفع بي أكثر للظلام. هذا طفل بريء قد ظُلم ظلما بينا. إن لم يكن هذا الطفل بريئا فمن يكون؟

"وهل نقلوا ما أفضيت لهم به إلى آخرين؟"

عاد ينظر إلى الجو الخريفي المُعتم بالخارج وهو يُصارع كي يحافظ على سلامه النفسي. قال أخيرا في ألم:

"لقد نقلوا بدورهم ما أسررت به إليهم إلى من يحبون.. وقد وصل ما قلت للمدرسين. لم أكن أعلم أنهم سيبلغون ولي أمري."

سألته في صرامة:

"وما تلك الأشياء التي كنت تحكيها؟"

ظهر من خلف النافذة أصل بلائنا وشقائنا مرةً أخرى. وكأنه يتحداني أن أعرف الحقيقة كلها. انهارت انتصاراتي الصغيرة فوقفت ثائرة غاضبة. صارخة في اللعين:

- يكفي هذا! يكفي!

t.me/qurssan

احتويت الطفل في صدري فسألني في خوف شديد:

"هل هي هنا؟!"

نظرتُ إليه متسائلة. كان لا يعرف أن كوينت عاد وظن أنني أحميه من الآنسة جيسيل. همس في ذعر:

"الآنسة جيسيل هنا؟"

كان يخشى أنها قد جاءت لتنهي ما بدأته مع فلورا. أخفيته في الركن وحُلت بينه وبين اللعين الذي صار كالضبع. يعوي ويحرك رأسه يمنه ويسرة في محاولة منه لرؤية الصبي. وجهه المريع وثورته كانا يُشعان السم في الحجرة من حولنا. قلت لميلز:

"أنه هو .. فقط هو."

سألني:

"من؟"

"بيتر كوينت! من غيره؟"

تملص مني ودار بوجهه في الغرفة متسائلا:

"أين هو؟"

قلت له سريعا:

"لا يهم أين هو. ولا يهم وجوده من الأساس. أنت معي.. "

وأضفت بصوت هادر موجهة كلامي للشيطان كوينت:

"وأنت لن تمس منه شعره!"

آه يا طفلاي الصغيران.. كان العالم قاسيا عليكما. ولم يَرُد لكما المحبة سوى شبحين لعينين.. تخلى عنكما كل من أحببتاه وتركوكما فريسة للظلام.

t.me/qurssan

تعلمتما الكتمان لأن المُصارحة أدمت قلبيكما. وكانت أشباح بلاي هي المأوى والملاذ..

قلت لميلز مشيرة لمكان كوينت وأنا أشجعه وأقويه:

"إنه هناك.. لا تخف."

التفت الصبي حوله فلم ير شيئا. نظرت حولي فلم أبصر الشبح. فتنهدت. فجأة صاح ميلز كأنما أُلقي في بئر سحيق. فأحطت به بجسدي. كان يرتجف والحجرة تُظلم من حولنا..

وكان كوينت هنا.. معنا..

أغمضت عيناي وكتمت صرختي.. وحين نظرت حولي مجددا. كان كل شيء هادئا طبيعيا. ولم يكن سواي أنا وميلز..

الصغير ينزلق من بين ذراعاي. فأمسكه.. أهزه.. أحملق في عينيه الشاخصتين..

لم أفقد شيئا.. لم أفقد شيئا..

لم أفقد سوى دقات قلب الصغير اليتيم. إذ توقفت للأبد. ولم يعد شيئا قادرًا على إيذاء ذلك القلب من جديد.

تمت.

t.me/qurssan

أشباحُ
عِزبة بلاي

كان الإعلان في الجريدة عن طلب مربية لطفلين مهذبين للغاية، براتب ممتاز وإقامة فاخرة في عزبة بلاي، لكن بشرط واحد، أن لا تشكو المربية من أي أوضاع غريبة، وأن تحل بنفسها كل ما قد يطرأ من مشاكل.

لم تستطع المربية الريفية الشابة أن ترفض عملا كهذا، ولم يخطر ببالها قط أي هول ستواجه مع الطفلين الساحرين المثيرين للريبة، ومع أشباح عزبة بلاي الغاضبة.

هنري جيمس

مؤلف بريطاني من أصل أمريكي من مواليد ١٨٤٣، وتوفي عام ١٩١٦، يعتبر قائد ومؤسس مدرسة الواقعية في الأدب الخيالي.

ركزت روايته على العلاقات الشخصية وإثارة التساؤلات الأخلاقية.

من أشهر رواياته: أجنحة الحمامة - صورة سيدة - إبريق الذهب.

شيرين هنائي

كاتبة روائية، مترجمة، كاتبة سيناريو ، مخرجة رسوم متحركة، ومحاضرة معتمدة من الأكاديمية العالمية للفنون و الإعلام والإبداع بالولايات المتحدة في مجال ورش التدريب على الكتابة الإبداعية و الروائية.

صدر للكاتبة روايتين مصورتين للكبار "كوميكس" هما:
"عجين القمر" "الموت يوما آخر".

كما صدر لها روايات طويلة
نيكروفيليا – صندوق الدمى – طغراء – أسفار النهايات
ذئاب يلوستون – ملاعيب الظل.

صدر لها ترجمات
أشباح هيل هاوس– لطالما عشنا في حصن - طفل روزماري
بالإضافة إلى ترجمات إليكترونية مجانية بالعامية المصرية

زين للنشر والتوزيع

t.me/qurssan